



الأمة الروميّة الأرثوذكسية

حارسة كنيسة القيامة ووديعة الصليب الكريم





كلمة صاحب الغبطة بطريك المدينة المقدسة أورشليم كيروس كيرويس ثيوفيلوس الثالث

في البطريركية الأرثوذكسية، بمناسبة
عيد رفع الصليب الكريم المحيي في العالم

٢٧ / ٩ / ٢٠٢٠ ش ، الواقع في: ١٤ / ٩ / ٢٠٢٠ غ

لولا كان بصليب ربنا يسوع المسيح، لأن كل شيء قد اصطلح بالصليب. فهوذا موت المسيح أي صليبه قد ألبسنا حكمة الله وقوته.

حقاً إن الصليب كأداة موت المسيح قد ألبسنا حكمة الله وقوته الاقنومية فإنه بحسب ما ورد في كتاب (أمثال سليمان) طُوبَى لِلْإِنْسَانِ الَّذِي وَجَدَ الْحِكْمَةَ، هِيَ شَجَرَةُ حَيَاةٍ لِكُلِّ الْمُتَعَلِّقِينَ بِهَا، وَطَمَائِنَةٌ لِلْمُسْتَنْدِينَ عَلَيْهَا. استنادهم على الرب. (أم ٣: ١٣ و ٣: ١٨).

إن الحكمة هي شجر الحياة في الفردوس لجميع أولئك المتعلقين بها وللمستندين عليها استنادهم على الرَّبِّ تكون طمأنينة وسند أمين. إنَّ عود الحياة هذا ليس هو إلَّا من عود الحياة الذي في وسط الفردوس. (تكوين ٢: ٩ و ٣: ٢٢). «أقوال القديس يوحنا الدمشقي»

إن الإكرام الخاص التي تعطيه كنيستنا المقدسة للصليب الكريم يؤكد عليه بوضوح القديس يوحنا الدمشقي قائلاً: «إنَّ عود الحياة ذاك الذي قد غرسه الله في الفردوس كان قد سبق ورمز إلى الصليب الكريم. فلما دخل الموت إلينا بالعود وَجَبَ أَنْ تُعْطَى لَنَا بِالْعُودِ الحياة والقيامة.»

وبكلام آخر إنَّ المسيح المصلوب هو عود الحياة أي الصليب الكريم والذي من خلاله نصبح نحن الكارزين بالمسيح المصلوب مساهمين ومشاركين في قوة الله وحكمته كما يركز القديس بولس الرسول: «وَلَكِنَّا نَحْنُ نَكْرُزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوبًا: لِلْيَهُودِ عَشْرَةٌ، وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةٌ وَأَمَّا لِلْمَدْعُونِ: يَهُودًا وَيُونَانِيِّينَ، فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةٌ



يُعَلِّمُ الْقَدِيسُ بُولُسُ الرِّسُولُ «إِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ، وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللَّهِ» (١ كور ١: ١٨)؛ وبتوضيح أكثر إنَّ كرازة الصليب عند أولئك الذين يسلكون في طريق الضياع تبدو لهم هذه الكرازة حماقة وجهل وأما نحن الذين نسلك في طريق الخلاص فهي قُوَّةُ اللَّهِ التي تَخَلِّصُ.

أيُّهَا الْآبَاءُ الْأَجْلَاءُ وَالْإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ، أَيُّهَا الزَّوَارُ الْحَسَنُ الْعِبَادَةُ.

تُعَيِّدُ الْيَوْمَ كَنِيسَةُ الرُّومِ الْأَرْتُودُكْسِ الْمَقْدَسَةِ بِعِيدِ رَفْعِ الصَّلِيبِ الْكَرِيمِ الْمَحْيِي فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ.

وبهذه المناسبة، ورغم الإجراءات الوقائية والاحترازية التي فرضتها جائحة كورونا، توجَّهت أخوية القبر المقدس إلى كنيسة القيامة المقدسة، حيث أقمنا سِرَّ الشكر الإلهي من جهة، وأقمنا من جهة أخرى مراسِمَ رَفْعِ الصَّلِيبِ الْكَرِيمِ الْمَحْيِي فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَثَرَتْ فِيهِ الْقَدِيسَةُ هِيلَانَةُ عَلَيْهِ، وكذلك في موضع الجلجلة الرهيب، حيث سَفِكَ دَمُ رَبَّنَا وَمَخْلَصُنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَحَيْثُ احْتَمَلَ آلامَهُ الطَّوْعِيَّةَ، وَصُلِبَ لِأَجْلِ خَلَاصِ الْعَالَمِ.

ويشير القديس يوحنا الدمشقي للأهمية اللاهوتية القصوى للصليب قائلاً: «إِذَا فَإِنَّ كُلَّ أَعْمَالِ الْمَسِيحِ وَمَعْجَزَاتِهِ عَظِيمَةٌ جَدًّا وَإِلَهِيَّةٌ وَعَجَبِيَّةٌ، بَيِّدُ أَنْ أَعْجَبَهَا كُلُّهَا صَلِيبُهُ الْكَرِيمِ. فَلَوْلَاهُ لَمَا بَطُلَ الْمَوْتُ أَبَدًا وَلَا انْخَلَّتْ خَطِيئَةُ آبِنَا الْأَوَّلِ وَلَا سُلِبَ الْجَحِيمِ وَلَا مُنَحِتِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُعْطِيتْ لَنَا قُوَّةُ لَاحْتِقَارِ الْأَشْيَاءِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَوْتِ نَفْسَهُ وَلَا مُهَيِّدُ السَّبِيلِ لِلْعُودَةِ إِلَى السَّعَادَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْفِرْدُوسِ وَجَلَسَتْ طَبِيعَتُنَا إِلَى مِيَامِنِ اللَّهِ، وَلَا صَرْنَا أَبْنَاءَ اللَّهِ وَوَرِثْتَهُ،

ويشير القديس يوحنا الدمشقي للأهمية اللاهوتية القصوى للصليب قائلاً: «إِذَا فَإِنَّ كُلَّ أَعْمَالِ الْمَسِيحِ وَمَعْجَزَاتِهِ عَظِيمَةٌ جَدًّا وَإِلَهِيَّةٌ وَعَجَبِيَّةٌ، بَيِّدُ أَنْ أَعْجَبَهَا كُلُّهَا صَلِيبُهُ الْكَرِيمِ. فَلَوْلَاهُ لَمَا بَطُلَ الْمَوْتُ أَبَدًا وَلَا انْخَلَّتْ خَطِيئَةُ آبِنَا الْأَوَّلِ وَلَا سُلِبَ الْجَحِيمِ وَلَا مُنَحِتِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُعْطِيتْ لَنَا قُوَّةُ لَاحْتِقَارِ الْأَشْيَاءِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَوْتِ نَفْسَهُ وَلَا مُهَيِّدُ السَّبِيلِ لِلْعُودَةِ إِلَى السَّعَادَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْفِرْدُوسِ وَجَلَسَتْ طَبِيعَتُنَا إِلَى مِيَامِنِ اللَّهِ، وَلَا صَرْنَا أَبْنَاءَ اللَّهِ وَوَرِثْتَهُ،

الله وَحِكْمَةِ اللهِ.» (١ كور ٢٣: ٢٤)

كل عام

البطريك ثيوفيلوس الثالث بطريك المدينة المقدسة اورشليم مَعَ أَدْعِيَتِنَا وَبَرَكَاتِنَا الْأَبَوِيَّةِ

إن قُوَّةَ الله وحكمته هو المسيح أي كلمة الله مخلص العالم، الذي تأنس وتجسد بالروح القدس من دماء النقية الدائمة البتولية مريم والدة الإله كما يرغم لاهوتياً مُرْتَمِ الكنيسة القديس قوزماس قائلاً: «إِنَّكَ فَرْدَوْسُ سِرِّي يَا وَالِدَةَ الإله، لَأَنَّكَ بِلَا فَلَاحَةٍ أَنْبَتَ الْمَسِيحَ الَّذِي غَرَسَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةَ الصليب المثمرة الحياة. فبسجودنا له الآن مرفوعاً إِيَّاكَ نُعْظِمُ.»

فالיום بالصليب الكريم الذي نرفعه الآن أَيُّهَا الإخوة الأَحِبَّة نَسْجُد ونُحْمَد الْمَسِيحَ «الَّذِي بَدَّلَ نَفْسَهُ لِجَلِينَا، لِكَيْ يَفْدِينَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا خَاصًّا غَيْرًا فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ.» (٢: ١٤). آمين.

ولكن لماذا؟:

لأنَّه منذ أن سَمَّرَ عَلَيْهِ رُثْنَا وَهَلْنَا وَمَخْلَصْنَا يسوع المسيح، ومات فوقه من أجل خلاص العالم، تحولت خشية العقوبة إلى خشية الخلاص. وكما تقول أحد التراتيل الكنسية: «لم يعد الصليب عقوبةً للحُكْم بالإدانة، بل صار لنا رَايَةً تُعْلَنُ الْخَلاصَ.» فالذي كان موضوع خزي وعار، أصبح مجد الكنيسة. والذي كان رمزاً للْعَنَةِ، صار «فَدَاءً مِنَ الْعَنَةِ الْقَدِيمَةِ». والخشبة التي



كانت علامة الألم والموت، غدت «علامة الفرح» و«ينبوعاً للحياة». وكلّ ذلك لأنَّ الرَّبَّ، عندما بسط جسده الطاهر على خشبة الصليب، سَمَّرَ عَلَيْهِ أَيْضًا خَطَايَانَا. وكما يكتب الرسول بولس، فَإِنَّ الْمَسِيحَ: «وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي الْخَطَايَا وَغُلْفَ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَاحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ نَحَا الصَّلْبُ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَاخِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسْطِ مُسَمَّرًا إِثَّاهُ بِالصَّلْبِ.» (كولوسي ٢: ١٣-١٤).

لقد صالحنا صليب المسيح مع الآب السماوي، بعدما كان إبليس قد فصل الإنسان عنه بخداعه لآدم وحواء. ولقد فتح لنا صليب المسيح أبواب ملكوت السماوات من جديد، لأنَّ الهاوية، قبل صَلْبِ الرَّبِّ، كانت تبتلع حتى الأبرار. ولهذا يحمل الصليب كلّ هذه القوة وكلّ هذه النعمة؛ فهي ليست قُوَّةَ الذاتية، بل قُوَّةَ الْمَسِيحِ وَنِعْمَتِهِ، اللتان انتقلتا إليه سِرِّيًّا وبطريقةٍ تفوق إدراك العقل، عندما سَمَّرَ عَلَيْهِ الرَّبُّ.

ولهذا تُنْشَدُ الكنيسة في أحد تراتيلها: «إِنَّ صَلْبِيكَ، أَيُّهَا الْمَسِيحُ، وَإِنْ كَانَ بِحَسَبِ طَبِيعَتِهِ خَشْبَةً مَنْظُورَةً، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ اكْتَسَى سُلْطَانًا لِهَيْأًا؛ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ يَظْهَرُ لِلْعَالَمِ ظَهْورًا حَسِيًّا، إِلَّا أَنَّهُ يَصْنَعُ خَلَاصًا بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ.»، لذلك أصبح الصليب علامةً الْمَسِيحِ الظَّاهِرَةِ، وَرَايَةً النَّصْرَةِ عَلَى الْمَوْتِ وَالْخَطِيئَةِ، واللواء الذي ترتعد منه الشياطين، لأنها ترى فيها قُوَّةَ الْمَصْلُوبِ الْقَائِمِ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ، لا مجرد خشبةٍ في ذاتها.

المصدر: «سيرة القديسين المعادلين للرسول، الإمبراطور قسطنطين والقديسة هيلانة، وعلامة الصليب». إصدار دير ستافروفوني المقدس - قبرص.

علامة الصليب: قوته، أهميته، وعجائبه

تمهيد:

قبل عشرين قرنًا، كان الصليب أداةً للعقوبة المُهينة والموت الرهيب. فقد كان الرُّومَانُ يحكمون بعقوبة الصليب على أخطر المجرمين. أمّا اليوم، فقد أصبح الصليب يتصدّر حياة المؤمنين المسيحيين كلّها، كما يتصدّر حياة الكنيسة بأسرها، إذ عَدَا أداةً للتضحية، والخلاص، والفرح، والتقديس، والنعمة. وكما يكتب القديس يوحنا الذهبي الفم: «إِنَّ هَذَا الرَّمْزَ الَّذِي كَانَ مَلْعُونًا وَمُثِيرًا لِلشُّمُتَزَازِ، بِوصفه أداةً لأقسى عقوبة، قد أصبح اليوم محبوبًا ومرغوبًا فيه.»

فأينما توجّهت رأيت الصليب:

على المذبح المقدّس، وفي سيّامات الكهنة، وفي القدّاس الإلهي؛ في البيوت، وفي المعمودية، وفي الأسواق، وفي البراري، وعلى الطرقات؛ في البحار، وعلى السفن، وفي الجزر؛ على الأسرة، وفي الثياب؛ في حفلات الزواج، وفي الموائد؛ على الأواني الذهبية والفضية؛ وفي الحُلِيِّ والرسوم الجدارية... لقد أصبحت هذه العطية العجيبة، وهذه النعمة التي لا يُعْبَرُ عنها، موضع شوق الجميع ومحبتهم.

حقًا، أينما أدار الإنسان نظره، داخل الكنيسة أو خارجها، يرى علامة الصليب؛ يراها رمزًا منظوريًا مرسومًا، كما يشهدها أيضًا حركة مقدّسة يرسمها المؤمن على جسده. إنّ علامة الصليب تطبع حياة الكنيسة كلّها.

أطلال الكنيسة البازيليكية الرومانيّة الأرثوذكسيّة
المشيّدة فوق صَريح القديس يوحنا المعمدان في سبسطية

قطع هامة القديس يوحنا المعمدان

بقلم: قسطنطين زيلتانس ✠ باحث لاهوتي من موقع بيميتوسيا

يشاهد سرّ ظهور الثالوث القدوس.

ونرتّل في مجلّة عيد الوجود الثالث لهامة القديس يوحنا المعمدان
الكرامة، أي الميجاليناريون (تسبحة التعظيم): «نقيم اليوم تذكّار
الوجود الثالث لهامتك الكليّة الكرامة، التي مجّدها الثالث
القدوس، أيها السابق ومعمدان الربّ. فقد برزت من الأرض للمرة
الثالثة، منادية للجميع: توبوا.»
تُحيي الكنيسة الأرثوذكسية ذكرى القديس يوحنا السابق عدة مرات
خلال السنة:

٢٣ أيلول (سبتمبر) شرقي: (الحبل بالسابق الشريف) من والديه
زكريا وإليصابات.

٢٤ حزيران (يونيو) شرقي: ميلاده الشريف.

٢٩ آب (أغسطس) شرقي: قطع هامته الشريفة.

٢٤ شباط (فبراير) شرقي: العثور الأول والثاني على هامته الشريفة.

٢٥ أيار (مايو) شرقي: العثور الثالث على هامته الشريفة.

٧ كانون الثاني (يناير) شرقي: تذكّار حافل القديس يوحنا المعمدان.

في الخامس والعشرين من أيار من كل عام، تحتفل الكنيسة
الأرثوذكسيّة بعيد الوجود الثالث لهامة القديس يوحنا المعمدان الشريفة،
مخلّدة ذكرى بروزها من جديد للمرة الثالثة.

وقد بقيت هامة القديس يوحنا المعمدان الشريفة مخفية سنواتٍ
طويلة، إلى أن برزت من باطن الأرض وأشرقت كالذهب. وعُثر
عليها داخل إناءٍ من الفضة، بعدما كانت في البداية موضوعة داخل
جرّة خاصة. وقد كشف أحد الكهنة من مدينة كومانا في كبادوكيا
عن الموضع الذي كانت تُحفظ فيه، بعدما رأى مكان وجودها في
رؤيا مقدسة أثناء النوم. وبالفعل، توجّهوا إلى الموضع الذي دُفّن
عليه، فعثروا على الهامة الشريفة.

وبعد وجودها، نُقلت هامة القديس الشريفة إلى ملكة المدن،

في التاسع والعشرين من آب شرقي من كل عام، الواقع في ١١ أيلول
غربي، تُعيد الكنيسة الرومانيّة الأرثوذكسيّة للقديس يوحنا السابق
والمعمدان، ولتذكّار قطع هامته المكرمة.

ويختصر القديس يوحنا في شخصه مجمل الكرازة النبويّة للعهد
القديم، وفي الوقت عينه يسبق مخلص البشرية يسوع المسيح،
ويستقبله، ويشهد له، فيغدو الجسر الذي يصل بين عالمين مختلفين،
يتداخل أحدهما في الآخر، في منظورٍ إسخاتولوجي (أخروي) دائم،
حيث يلتقي الماضي بالحاضر في سرّ التدبير الإلهي.

إنّ القديس يوحنا السابق هو العظمة المتجسّدة للتواضع، وآخر
الأنبياء. وقد قُطعت هامته الشريفة، فصار كارزاً متألّفاً بانتصار
المسيح على الموت، مبشّراً أيضاً الذين كانوا في الجحيم بهذا
الخلاص.

في طروبارية قطع الهامة الكريمة للقديس يوحنا السابق نرتّل:

إنّ ذكر الصديق بالمديح، فأنّت أيّها السابق تكفيك شهادة
الربّ، فأنك ظهرت في الحقيقة أشرف كل الأنبياء، إذ استحققت
أن تُعمّد في المياه الجارية الذي كرّزوا هم به. ومن ثم ناضلت عن
الحق وبشّرت مسروراً، الذين في الجحيم بظهور الإله مُتجسّداً،
يرفع خطيئة العالم، ويمنحنا عظيم الرحمة.

ملحوظة: وردت في النص اليوناني كلمة «ريشيس» «ρείθρις»، وهي
تعني المياه الجارية أو مجاري المياه، أي جريان النهر أو الجداول. وقد
تجنّبنا ترجمتها بكلمة «المجاري»، لأنّ هذا اللفظ في العربية المعاصرة يُفهم غالباً
بمعنى مجاري الصرف الصحي، وهو معنى لا يقصده النص اليوناني إطلاقاً.
لذلك أترنا ترجمتها بما يوافق معناها الأصلي وسياق معمودية الربّ في نهر الأردن.

النبى زكريا ويوحنا السابق:

إنّ القديس يوحنا السابق هو السراج المنير، والفجر الذي يشهد
لشمس البرّ، المسيح. وهو آخر الأنبياء الذي عاين بعينيه المسيح،
فكرز به، وعمّده في نهر الأردن، واستؤهل في تلك الساعة أن

القسطنطينية، وأودعت في دير ستوديون المقدس. وهناك، وبحضور الإمبراطور والبطريك والشعب المؤمن المحب للقديسين في المدينة الملكية، أُقيم استقبال مهيب واحتفالي وبهي لهامة القديس يوحنا السابق والمعمدان الشريفة، فيما عمّ الفرح الجميع، وذرفت العيون دموع البهجة والتأثر للوجود المبارك لهذا الكنز الثمين.

لقد أرسل الله القديس يوحنا السابق ليعدّ العالم لاستقبال المسيح المنتظر. ولما منحه الله العلامة التي بها يتعرّف إلى المسيا، أي الامتياز الفريد بأن «الذي تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ». (يوحنا ١: ٣٣)، انطلق في الحال يعلن أمام الجموع قائلاً: «هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ» (يوحنا ١: ٣٤).

وقد اكتسبت شهادة يوحنا المعمدان أهمية عظيمة وفريدة، لأنها اتسمت بالتجرّد الكامل. فحين ذاع صيته وبلغت شهرته ذروتها، وأخذ الشعب يمجّده، «أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلَاوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» (يوحنا ١: ١٩). وقد نشأ هذا السؤال لأن كثيرين ظنّوا أن يوحنا هو المسيح.

أما هذا الرجل المستقيم والصادق، القديس يوحنا السابق والمعمدان، فأجاب بكل صراحة، ليس فقط: «لست أنا المسيح»، بل أعلن أيضاً أنه، على الرغم من خدمته العظيمة والشهرة التي أحاطت به، لا يستحق، إذا ما قورن بالمسيح، «أَنْ يَحُلَّ سُبُورَ حِذَائِهِ». ولذلك جاءت شهادته شهادة عظيمة، نزيهة، وخالية من كل منفعة ذاتية. وتتحلّى قيمة شهادة القديس يوحنا أيضاً في حياته المقدسة. ففي جميع سنوات حياته القصيرة، بقي السابق الكريم متوشحاً بتواضع عميق، وكان يدرك دائماً أنه السراج أمام النور، والخدام أمام السيد، والإنسان أمام الله.

كان القديس يوحنا المعمدان قائماً أخلاقية سامية. فقد كان محتاراً من الله منذ أن كان في أحشاء أمه. وقد أعلن رئيس الملائكة جبرائيل عنه قائلاً: «وَمَنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ». (لوقا ١: ١٥). وفي سن مبكرة مضى إلى البرية، وهناك نال دعوة الله العظمى (لوقا ٣: ٣)، ليكون سابقاً للمسيح، أي ليهيئ الناس لاستقبال المخلص يسوع المسيح. ومنذ ذلك الحين، بصفته مُرسلاً من الله، «جَاءَ إِلَى جَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأُرْدُنِّ يَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ لِمَعْفَرَةِ الْخَطَايَا» (لو ٣: ٣).

وعاش في البرية حتى بلغ الثلاثين من عمره حياة نسكية صارمة، مقتصرًا على أقلّ ما يحتاج إليه الإنسان ليعيش، من طعام يسير ولباس متواضع. وكان طعامه يتكوّن من الجراد، ومن غسل النحل البري (أكل الجراد (الحشرة) كان وما زال أمراً مألوفاً وشائعاً لدى سكان القفر والبادية في الشرق الأوسط، وهو محلّ صراحة في الشريعة الموسوية (لاويين ١١: ٢٢)، أمّا ثوبه فكان من وبر الإبل، يشده على وسطه بمنطقة من جلد (متى ٣: ٤؛ مرقس ١: ٦).

وكان يوحنا، بجميّه النسكية، وشعره الطويل، ولحيته الكثيفة، وبشرته التي لفتحها شمس البرية، يبدو أمام الناس مهيباً، وقوراً، كريم الطلعة،

قوي الشخصية، فتتجلى منذ الوهلة الأولى عظمه شخصيته الفريدة. لقد امتلك يوحنا جميع المقومات التي تؤهله ليكون كارزاً عظيماً بكلمة الله. فهو الذي سبق أن تنبأ عنه النبي إشعيا بقوله: «صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً» (إشعيا ٤٠: ٣؛ متى ٣: ٣؛ يوحنا ١: ٢٣).

فكان يوحنا هو ذلك الصوت الصارخ في البرية، يدعو الناس إلى إعداد الطريق لقدم الرب إليهم، ويحثهم على تنقية قلوبهم بالتوبة، لكي يكونوا مستعدين لاستقبال الرب.

كان القديس يوحنا المعمدان مكرساً تكريساً كاملاً للصلاة، ولسعيه الدائم نحو الكمال الروحي والأخلاقي؛ ولذلك يُعدّ بحق أوّل النّسّاك وأوّل الرّهبان.

وكان بسيطاً، بعيداً عن كل تكلف، في جميع تصرفاته. واتسم بتواضع فريد، فلم تؤثر فيه البتة الشهرة الواسعة ولا المكانة العظيمة التي حظي بها لدى الشعب، حتى إنّ الفريسيين ورؤساء الكهنة وشيوخ الشعب كانوا يحسبون له حساباً كبيراً، «لأنهم كانوا يخافون الجمع، إذ كان الجميع يعدّون يوحنا نبياً» (متى ٢١: ٢٦).

وقد شهد الجميع لقداسته واعترفوا بها، حتى إنّ هيرودس نفسه «كَانَ يَهَابُ يُوحَنَّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقَدِيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ». (مرقس ٦: ٢٠).

بعد وقت قصير من معمودية ربنا يسوع المسيح، ألقي القبض على يوحنا المعمدان وأودع السجن بأمر من هيرودس. وكانت هيروديا، زوجة هيرودس غير الشرعية، هي التي حرّضته على اعتقال يوحنا وسجنه، لأنه كان يوبّخه على هذه العلاقة المحرّمة، إذ كانت هيروديا زوجة أخيه، وكان يقول له: «لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ امْرَأَةٌ أَحْيَا» (مرقس ٦: ١٨).

ثم تلا ذلك قطع هامة يوحنا واستشهاده، في تلك الظروف المعروفة التي جرت أثناء مأدبة هيرودس، ورقص ابنة هيروديا، والقسم الآثم الذي قطعه لها، إذ وعدها أن يمنحها أيّ مكافأة تطلبها. وبناءً على توجيه أمها الماكرة هيروديا، فطلبت الفتاة صالومي، (بالعبرية شلوميت سلوميت)، طاعة لأُمها، هامة يوحنا السابق على طبق.

وكانت هيروديا تضرر ليوحنا عداوة شديدة، وتتوق إلى قتله، لأنه كان يوجّه إلى هيرودس توبيخاً صارماً بسبب علاقته غير الشرعية بها، إذ كانت زوجة أخيه. لكنها لم تكن قادرة على تحقيق ذلك، لأن هيرودس كان يهاب يوحنا ويحترم شخصيته، «عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقَدِيسٌ» (مرقس ٦: ١٨-٢٠)، كما كان يدرك جيداً أن قتله سيثير غضب الجموع، لأن يوحنا كان محبوباً جداً وذا مكانة عظيمة في نظر الشعب. ومع ذلك، كانت الضغوط التي مارسها عليه هيروديا لا تُحتمل، إذ جعلت من قتل السابق الكريم هدفها الأول.

ونتيجة لهذه الضغوط الشديدة، أمر هيرودس بالقبض على يوحنا وسجنه في قلعة ماكيروس (المكاور) بشرق نهر الأردن. لكن السجن لم

وبعد انتقال القديس يوحنا المعمدان من هذه الحياة الأرضية، ازدادت مكانة رسالته، وتجلّى بوضوح تحقّق النبوة التي قيلت فيه: «كُلُّ وَاِدٍ يَمْتَلِئُ، وَكُلُّ جَبَلٍ وَأَكْمَةٍ يَنْخَفِضُ، وَتَصِيرُ الْمُعْجَازَاتُ مُسْتَقِيمَةً، وَالشَّعَابُ طُرُقًا سَهْلَةً، وَيُبْصِرُ كُلُّ بَشَرٍ خَلَاصَ اللَّهِ» (لوقا ٣: ٥-٦؛ إشعياء ٤٠: ٣-٥).

لذلك، كانت رسالة القديس يوحنا المعمدان أن يحثّ الناس على إدراك خطاياهم إدراكًا عميقًا، والرجوع إلى الله بتواضع وتوبة. ومن صميم رسالته المقدسة أيضًا، أنه سعى، بكل حيادٍ وتجرد، من خلال كرازته، إلى تحرير الناس من ظلمة أذهابهم، وتقويم ميولهم المنحرفة، حتى تتوق نفوسهم إلى الخلاص بالمسيح وتشتاق إليه.

والقديس يوحنا السابق والمعمدان هو، بحق، الأول بين الأنبياء والرسل؛ فهو الذي يختتم عهد الأنبياء ويفتتح عهد الرسل. وعنه قال الرب يسوع المسيح لتلاميذه: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمُؤَلَّودِينَ مِنَ النَّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ» (متى ١١: ١١).

ولهذا السبب، تكرّمه الكنيسة الأرثوذكسية إكرامًا فريدًا، إذ تضع أيقونته على الأيقونسطاس إلى جوار المخلص المسيح، كما تُخرج له في كل قداسٍ إلهي حصّة خاصة في خدمة التقديم، إعداد القرايين، في كل ذبيحة إلهية، البروتيسيس *Πρόθεσις*، مكرسة باسمه.

ولما بلغ القديس يوحنا الثلاثين من عمره، وهي السن التي تؤهل الإنسان للتعليم بحسب الشريعة الموسوية، «وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس البنطي واليًا على اليهودية، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل، وفيلبس أخوه رئيس رُبع على إيطورية وكورة تراخونيتس، وليسانئوس رئيس رُبع على الأبلية، في أيام رئيس الكهنة حنّان وقيفا، كانت كلمته الله على يوحنا بن زكريّا في البرية» (لوقا ٣: ١-٢)، بدأ يوحنا يكرز في برية اليهودية، داعيًا جميع الشعب إلى التوبة، قائلًا: «توبّوا، لأنّه قد اقترب ملكوت السمّوات»، وكان يعمّد الذين كانوا يقبلون إليه (متى ٣: ٢).

وكانت معمودية القديس يوحنا السابق «بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا» (لوقا ٣: ٣). وكانت عملاً رمزيًا للتطهير، يهيئ الذين كانوا يأتون إليه معترفين بخطاياهم، إذ كان يحثّهم على إدراك خطاياهم والشعور بالحاجة إلى التوبة.

أمّا يوحنا السابق، فلم يكن يمنح الروح القدس، ولا كان يهب غفران الخطايا. ولذلك كان يقول: «أنا أعمّدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى مني... هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (متى ٣: ١١، مرقس ١: ٨).

كان القديس يوحنا المعمدان رجلًا لا يعرف المساومة. فقد كان يوبّخ بشدة كبرياء الفريسيين والصدوقيين وخطيئتهم، ويدعوهم: «يَا أَوْلَادَ الْأَفَاعِي» (متى ٣: ٧). وكان يدعوهم إلى التوبة، محذّرًا إياهم من أنهم سيقعون تحت غضب الله إن لم يتوبوا؛ وكان يجول في جميع أنحاء نهر الأردن، يكرز بمعمودية التوبة (متى ٣: ١؛ مرقس ١: ٤؛ لوقا ٣: ٣). وكان يوحنا يعمّد بالماء، أما «الأقوى منه»، الذي يأتي

يكن كافيًا لهيروديا، لأن يوحنا - حتى من داخل السجن - كان يواصل الصراخ والتنديد بسوء أخلاق ارتباطها بهيرودس الذي هو أخو زوجها. وفي عيد ميلاد هيرودس، أثناء العشاء الذي أقامه لأعيان المنطقة ووفود الجليل، نفذت خطة خبيثة: طلبت من ابنتها أن تصطاد هيرودس بمفاتنها عبر رقصة إغراء. ولمّا وقع هيرودس في الفخ أقسم أن يعطيها أي شيء تطلبه حتى نصف مملكته. وعندما استشارت الشابة أمها، أجابته أن تطلب رأس يوحنا المعمدان. «فَدَخَلَتْ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْمَلِكِ وَطَلَبَتْ قَائِلَةً: «أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالًا رَأْسَ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ» (مر ٦: ٢٥). وجد هيرودس نفسه في موقف حرج، لكنه لم يرد أن يُخرّج أمام الضيوف فينقض قسمه، فأرسل السياف إلى السجن يأمره إحضار رأس يوحنا. ونفّذ السياف الأمر المأساوي، فذهب إلى السجن وقطع رأس يوحنا وأحضر الرأس على طبق وسلّمه للفتاة، والتي بدورها سلمته لأُمها الماكورة هيروديا. وهكذا نجحت الخطة الخبيثة، وصارت الهامة الشريفة هي الجائزة المأساوية.

لقد ختم القديس يوحنا السابق جهاده بدمه، فصار شاهدًا للحق والأخلاق. وإنّ ثباته في الدعوة التي أقامه الله فيها، حتى سفك دمه وتقديم حياته ذبيحة، وإعلانه الحق بلا خوف وفي كل حين، جعله بطلًا وشهيدًا للحق، وصادقًا في كرازته بالأخلاق، وبالتوبة، وبالمسيح المخلص، إذ كان يشهد قائلًا: «هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ».

وبعد قطع هامة القديس السابق، جاء تلاميذه إلى قلعة هيرودس في مأكبروس، وأخذوا جسده الطاهر، بعد أن فُصلت عنه الهامة، ودفنوه (متى ١٤: ١-١٢؛ مرقس ٦: ٢١-٢٩).

ووفقًا للتقليد الكنسي، دُفن القديس يوحنا المعمدان في سبسطية السامرة، لأن تلك المنطقة لم تكن خاضعة لسلطان هيرودس. وفي القرن الخامس شيّدت فوق ضريح القديس كنيسة فخمة على الطراز البازيليكي، ضمّت في داخلها المزار المقدس. وفيما بعد، تهدّمت هذه الكنيسة الرومية، إمّا بسبب زلزالٍ عنيف، وإمّا على يد الغزاة الفرس، غير أن المزار المقدس بقي قائمًا، وظل مقصدًا للحجاج والزائرين عبر الأجيال.

وفي القرن الثاني عشر أُعيد بناء كنيسة القديس يوحنا السابق، لكنها حوّلت بعد ذلك إلى مسجد، إثر استيلاء المسلمين على سبسطية سنة ١١٨٧. غير أن السرداب الكائن تحت أرضية البناء ما يزال، حتى اليوم، يختصن ضريح القديس يوحنا السابق، إلى جانب ضريحي النبيين أليشع وعوبديا.

أمّا الحارث الرابع، ملك الأنباط، والد زوجة هيرودس السابقة، وكان من أقوى ملوك زمانه، فقد استشاط غضبًا لمّا لحق بابنته فاصيليدا *Phasilida Φασιλιδα* من إهانة، بعد أن تركها هيرودس ليتزوج هيروديا. وعلى إثر ذلك، اندلعت الحرب بين الحارث الرابع وهيرودس، فزحف الملك النبطي بجيشه إلى أراضي صهره السابق، وألحق به هزيمة ساحقة سنة ٣٦ م. وقد رأى كثيرون في تلك الهزيمة عقابًا إلهيًا على قتل القديس يوحنا المعمدان.

بعده، فسيعمد الشعب «بالروح القدس» (مرقس ١: ٨-١).

«حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الْأُرْدُنِّ إِلَى يُوْحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ» (متى ٣: ١٣). ولَمَّا طَلَبَ الرَّبُّ مِنْ يُوْحَنَّا أَنْ يَعْمِدَهُ، أَخَذَ يُوْحَنَّا يَمْنَعُهُ بِالْحَاحِ، قَائِلًا: «أَنَا، الْإِنْسَانُ الضَّعِيفُ وَغَيْرُ الْمُسْتَحَقِّ، أحتاج أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ لَتَعْتَمِدَ مِنِّي؟». كَمَا يَذْكُرُ الْإِنْجِيلِيُّ مَتَّى: «وَلَكِنْ يُوْحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلًا: أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ؟» (متى ٣: ١٤).

أَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَ، مُبَدِّدًا تَرَدُّدَ يُوْحَنَّا الْمُتَوَاضِعِ، قَائِلًا: «اسْمَحْ الْآنَ، لَأَنَّهُ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَكْمُلَ كُلَّ بَرٍّ». أَيُّ لَا تَعْتَرِضُ وَلَا تَضَعُ عَائِقًا أَمَامَ مَعْمُودِيَّتِي، لَأَنَّ مَشِئَةَ اللَّهِ تَقْتَضِي أَنْ نَتِمَّ كُلَّ مَا رَسَمَهُ لَخَلَاصِ الْإِنْسَانِ. «فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: اسْمَحْ الْآنَ، لَأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَكْمُلَ كُلَّ بَرٍّ. حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ» (متى ٣: ١٥).

فَعَمِدَهُ يُوْحَنَّا فِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، وَمَا إِنْ اعْتَمَدَ الرَّبُّ يَسُوعَ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ فِي الْحَالِ، لَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ خَطِيئَةٌ يَعْتَرِفُ بِهَا. وَعَلَى خِلَافِ سَائِرِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ، إِذْ كَانُوا يَمْكُثُونَ فِي الْمَاءِ طَوَالَ مَدَّةِ اعْتِرَافِهِمْ بِخَطَايَاهُمْ، خَرَجَ الْمَسِيحُ مِنَ الْمَاءِ حَالًا، لَأَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي بَلَا خَطِيئَةَ. وَقَدْ اسْتَوْهَلَ الْقُدَيْسُ يُوْحَنَّا السَّابِقَ وَالْمَعْمِدَانِ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ الْآبِ، وَأَنْ يَعَايِنَ الْإِبْنَ، كَلِمَةَ اللَّهِ الْمُتَجَسِّدِ، وَالرُّوحَ الْقُدُّوسَ، وَأَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى هَامَةِ الْإِلَهِ الْمُتَأَنِّسِ.

فَإِنَّ قَوْلَ الْإِنْجِيلِيِّ مَتَّى: «وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَتَحَتْ لَهُ»، وَقَوْلَ الْإِنْجِيلِيِّ مَرْقَسَ: «رَأَى السَّمَاءَاتِ قَدْ انْشَقَّتْ»، يَعْلَنَانِ اسْتِعَادَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الْخَطِيئَةُ قَدْ قَطَعَتْهَا وَأَغْلَقَتْهَا. وَأَثْنَاءَ مَعْمُودِيَةِ الْمَسِيحِ عَلَى يَدِ يُوْحَنَّا، حُلَّ الرُّوحُ الْقُدُّوسُ بِهَيْئَةِ حَمَامَةٍ عَلَى هَامَةِ الْمَسِيحِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ سَمِعَ صَوْتَ اللَّهِ الْآبِ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَرْتُ» (متى ٣: ١٧). وَهَكَذَا تَجَلَّى اللَّهُ الثَّالُوثُ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، مُؤَكِّدًا تَدْبِيرَهُ الْخَلَاصِي مِنْ أَجْلِ خَلَاصِ الْإِنْسَانِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَشَارَ الْقُدَيْسُ يُوْحَنَّا السَّابِقَ إِلَى يَسُوعَ قَائِلًا: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يُوْحَنَّا ١: ٢٩). فَهُوَ الْحَمَلُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي حَمَلَ عَلَى عَاتِقِهِ خَطَايَا كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، نَحْنُ الْبَشَرُ السَّاقِطِينَ. لَقَدْ جَاءَ الْمَسِيحُ لِيَخْلِّصَ الْإِنْسَانَ السَّاقِطَ فِي الْخَطِيئَةِ، أَيِ الْخَطَاةِ، لَا الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَبْرَارًا. وَوَقْفًا لِإِنْجِيلِ يُوْحَنَّا (١: ٣٥-٤٣)، فَإِنْ تَلَامِيذُ يُوْحَنَّا، الَّذِينَ أَعَدَّهُمْ لِحُجِيِّ الْمَسِيحِ، تَبَعُوا الرَّبَّ وَصَارُوا رُسُلَهُ.

وَسُمِّيَ الْقُدَيْسُ يُوْحَنَّا السَّابِقَ، لَأَنَّهُ سَبَقَ الرَّبُّ يَسُوعَ، مُمَهِّدًا الطَّرِيقَ أَمَامَهُ، وَمَهَيِّئًا قُلُوبَ النَّاسِ لِقَبُولِهِ. فَقَدْ بَشَّرَ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ الْمُنْتَظَرِ، وَشَهِدَ لَهُ، وَأَعَدَّ النَّاسَ، مِنْ خِلَالِ كِرَازَتِهِ، لِقَبُولِ الْبَشَارَةِ الْخَلَاصِيَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِلَهِ الْمُتَأَنِّسُ، رَبُّنَا يَسُوعُ الْمَسِيحُ.

كَمَا سُمِّيَ يُوْحَنَّا بِأَمْرِ إِلَهِيٍّ، إِذْ ظَهَرَ مَلَاكُ الرَّبِّ لَزَكَرِيَّا، أَبِي الْقُدَيْسِ يُوْحَنَّا السَّابِقِ، وَهُوَ يَقْدِمُ الْبُخُورَ فِي الْهِكَلِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ الْمَوْلُودَ بِاسْمِ «يُوْحَنَّا». فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا مَلَاكُ الرَّبِّ وَاقِفًا عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبُخُورِ، اضْطَرَبَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ.

«فَقَالَ لَهُ الْمَلَاكُ: «لَا تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لَأَنَّ طِلْبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ، وَأَمْرَاتُكَ أَلْيَصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوْحَنَّا. وَيَكُونُ لَكَ فَرْحٌ وَابْتِهَاجٌ، وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلَادَتِهِ، لَأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لَا يَشْرَبُ، وَمَنْ بَطْنُ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ. وَيَزِدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهُهُمْ. وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِرُوحِ إِبِلِيَّا وَقُوَّتِهِ، لِيَزِدَّ قُلُوبَ الْآبَاءِ إِلَى الْأَبْنَاءِ، وَالْعَصَاةَ إِلَى فِكْرِ الْأَبْرَارِ، لِكَيْ يُهَيِّئَ لِلَّهِ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا»» (لوقا ١: ١٣-١٧).

فَاتَّبَعَ الشَّيْخُ زَكَرِيَّا فَرْحًا، غَيْرَ أَنَّهُ سَاوَرَهُ الشَّكُّ، إِذْ أَخَذَ يَتَسَاءَلُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ مَا سَمِعَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ فِي السَّنِ، وَكَانَتِ أَلْيَصَابَاتُ عَاقِرًا.

فَقَالَ لِلْمَلَاكِ: كَيْفَ أَتَبَيَّنُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَا شَيْخٌ، وَأَمْرَاتِي مُتَقَدِّمَةٌ فِي الْعُمُرِ وَعَاقِرَةٌ؟

«فَأَجَابَ الْمَلَاكُ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا جِبْرَائِيلُ الْوَاقِفُ قُدَّامَ اللَّهِ، وَأُرْسِلْتُ لَأُكَلِّمَكَ وَأُبَشِّرَكَ بِهَذَا. وَهَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَذَا، لَأَنَّكَ لَمْ تُصَدِّقْ كَلَامِي الَّذِي سَيَتِمُّ فِي وَقْتِهِ»» (لوقا ١: ١٩-٢٠).

وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَ الطِّفْلُ، ابْنُ زَكَرِيَّا وَأَلْيَصَابَاتِ، حُلَّ الْيَوْمُ الثَّامِنُ مِنْ مِيلَادِهِ، يَوْمَ الْخِتَانِ وَالتَّسْمِيَةِ، اجْتَمَعَ الْأَقْرَبَاءُ وَالْجِيرَانُ فِي بَيْتِ زَكَرِيَّا لِيَهْنِئُوا الْوَالِدَيْنِ، وَيَحْتَفِلُوا بِتَكْرِيسِ الطِّفْلِ لِلَّهِ، وَكَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَسَمُّوهُ زَكَرِيَّا، عَلَى اسْمِ أَبِيهِ. أَمَّا أَلْيَصَابَاتُ، الْمُسْتَنِيرَةُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، فَرَفَضَتْ ذَلِكَ وَقَالَتْ بِحَزْمٍ: «لَا، بَلْ يُسَمَّى يُوْحَنَّا»، أَيِ: «اللَّهُ تَحْسَنٌ» أَوْ «اللَّهُ أَنْعَمَ». فَتَعَجَّبَ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ، لَأَنَّ هَذَا الْاسْمَ لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَقْرَبَائِهِمْ. فَأَخَذُوا يَشِيرُونَ إِلَى زَكَرِيَّا لِيَسْأَلُوهُ أَيَّ اسْمٍ يَرِيدُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى ابْنِهِ.

وَلَمَّا كَانَ زَكَرِيَّا عَاجِزًا عَنِ الْكَلَامِ، طَلَبَ لَوْحًا وَكُتِبَ، وَسَطَ دَهْشَةٍ الْجَمِيعِ: «يُوْحَنَّا اسْمُهُ». وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْخَلَّ لِسَانُهُ، وَانْفَتَحَ فَمُهُ، وَاسْتَعَادَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ، فَأَخَذَ مِنْ فَوْرِهِ يَسَبِّحُ اللَّهَ وَيَمَجِّدُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْعَظِيمِ إِلَيْهِ. وَامْتَلَأَ زَكَرِيَّا مِنَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ، وَتَنَبَّأَ عَنْ ابْنِهِ يُوْحَنَّا قَائِلًا: «وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيٌّ عَلِيٌّ تَدْعَى، لَأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ. لِتُعْطِيَ شَعْبَهُ مَعْرِفَةَ الْخَلَاصِ بِمَغْفِرَةِ خَطَايَاهُمْ، بِأَحْشَاءِ رَحْمَةِ إِهْنَا الَّتِي بِهَا افْتَقَدْنَا الْمُشْرِقُ مِنَ الْعِلَاقَةِ. لِيُضِيَّ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلُمَةِ وَظِلَالِ الْمَوْتِ، لِكَيْ يَهْدِيَ أَقْدَامَنَا فِي طَرِيقِ السَّلَامِ» (لوقا ١: ٧٦-٧٩).

وبهذه الكلمات، أعاد زَكَرِيَّا التَّأَكِيدَ عَلَى نُبُوَةِ إِشْعِيَاءَ عَنْ يُوْحَنَّا: «صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً» (متى ٣: ٣).

لَمْ يُرِزَقْ زَكَرِيَّا وَأَلْيَصَابَاتُ وَلَدًا، وَكَانَ حُرْمَانُهُمَا مِنَ النَّسْلِ جَرْحًا عَمِيقًا فِي قَلْبِهِمَا. وَمَعَ تَعَاقُبِ السَّنِينَ وَبُلُوغِهِمَا سِنًا مُتَقَدِّمَةً، خَبَا رَجَاؤُهُمَا بِحَسَبِ مَنْطِقِ الطَّبِيعَةِ، كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا. غَيْرَ أَنَّهُ «حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ، تُغْلَبُ نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ»؛ فَقَدْ كَانَا بَارِّينَ وَفَاضِلِينَ، سَالِكِينَ بِأَمَانَةٍ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ.

يُخبرنا الإنجيلي مرقس في إنجيله أن: «يوحنا كان رجلاً باراً وقديساً» (مرقس ٦: ١٨-٢٠). إنَّ القديس يوحنا السابق هو الملاك المتجسّد على الأرض، وهو الكارز المتألّهي، والسراج المنير. وهو الفجر الذي يشهد لشمس البر، المسيح، وآخر الأنبياء الذي رأى المسيح بعينه، وكُرس به، وعمّده في نهر الأردن.

إنه العظمة المتجسدة للتواضع، والإنسان الذي سبق فيشّر بمخلص البشرية، واستقبله، وأشار إليه. وكان يوحنا يكرز بجملة أن يسوع المسيح هو المسيح، الإله الحق، الذي نزل من السماء إلى الأرض، وأن كل من يؤمن به تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣: ٢٢-٣٦). «الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْإِبْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْإِبْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً بَلْ يَمُوتُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ». (يوحنا ٣: ٣٦).

ونرتل في طروبارية عيد الوجود الثالث لهامة القديس: إن المسيح أظهر لنا هامتك المكرمة أيها النبي السابق، كذخيرة إلهية مخفية في الأرض. فجميعنا إذا قد اجتمعنا بوجودها، لنسبح المخلص بالتسابيح الإلهية. الذي خلّصنا من الفساد بوسائلك.

ومن أبرز ما امتازت به كرازة القديس يوحنا السابق والمعمدان قوله للشعب: «وَلَكِنْ فِي وَسْطِكُمْ قَائِمٌ الَّذِي لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي، الَّذِي صَارَ قُدَّامِي، الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقٍّ أَنْ أُحْلِيَ سَيُورَ حِذَائِهِ» (يوحنا ١: ٢٦-٢٧). فالقديس يوحنا السابق والمعمدان،

سابق ربنا يسوع المسيح، هو إحدى أعظم شخصيات الكنيسة الرومية الأرثوذكسية، وخاتمة الأنبياء وأعظمهم جميعاً. ووفقاً لقنداق عيد قطع هامة القديس يوحنا السابق، نرتل: إنَّ قطع رأس السابق المجيد كان بتدبير إلهي. ليكرز للذين في الجحيم أيضاً بمجيء المخلص. فلتتحب هيروديا باكية لطلبها القتل الأثيم. فإنها لم تؤثر شريعة الله ولا الحياة الأبدية. بل الحياة المبهرجة الوقتية.

كان أعظم أعمال القديس يوحنا المعمدان أن يحثّ الناس على إدراك خطاياهم، والرجوع إلى الله بتواضع، وأن يرغبوا ويشتاقوا إلى الخلاص بالمسيح. إنَّ عطايا الله وإحساناته تقود أصحاب القلوب الشاكرة إلى التوبة. وكثيراً ما يؤثر استنارة الله تأثيراً حاسماً في حياة الإنسان، فيرده إلى الصلاح، ويقوده إلى طريق ملكوت السماوات، مبرهنًا بالفعل أن: «اللَّهُ الَّذِي قَالَ: لِيُشْرِقْ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا، لِإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ اللَّهِ فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (٢ كورنثوس ٤: ٦).

ويوم التاسع والعشرين من آب، الذي تخصّصه الكنيسة الرومية الأرثوذكسية لتذكّار قطع هامة القديس يوحنا السابق والمعمدان الشريفة، هو يوم صوم انقطاعي صارم. فليكن مثال القديس يوحنا السابق، وشهادته، واستشهاده، وجهاده في سبيل الرب يسوع المسيح، نبراساً يعلّمنا جميعاً. ولتكن شفاعاته معنا. آمين.



السبعة، كأساس للإيمان المُعلن من السماء.

ومن هذا المنطلق، تحترم الكنيسة كل مبادرة تقوم على الحوار والاحترام المتبادل ومحبة الأشخاص، لكنها تمتنع، بحدود وأمانة، عن المشاركة في صلوات مشتركة تعبّر عن شركة إيمانية غير قائمة بعد. هذا الموقف لا ينبع من رفض أو انغلاق، بل من التزام حقيقي بالإيمان المُعلن، إذ تحرص الكنيسة الأرثوذكسية على حفظ ما تسلّمته بأمانة، لا كتراث قابل للتعديل، بل كوديعة حيّة تُسلم من جيل إلى جيل. وكما أوصى الرسول بولس تلميذه تيموثاوس قائلاً: «وَمَا سَمِعْتُهُ مِنِّي بِشُهُودِ كَثِيرِينَ، أَوْدَعُهُ أَنَا أَمَنَاءَ، يَكُونُونَ أَكْفَاءَ أَنْ يُعَلِّمُوا آخَرِينَ أَيْضًا» (٢ تي ٢: ٢). فالإيمان، بحسب هذا الفهم الرسولي، ليس مجالاً للاجتهاد أو الابتكار، بل أمانة تُحفظ وتُسلم في الكنيسة، كما أُعلّنت من السماء، لأن الكنيسة لا تسعى إلى ما يجذب الأنظار، بل إلى ما يثبت النفوس؛ ولا إلى ما يبدو نوراً، بل إلى النور الحقيقي غير المخلوق، نور المسيح، الذي وحده يقود بوضوح وأمان إلى الخلاص.

تؤمن الكنيسة الرومية الأرثوذكسية بالحبّة الصادقة تجاه كل إنسان، لأن كل إنسان هو مدعو إلى الخلاص من خلال سرّ التدبير الإلهي، غير أن هذه الحبّة الصادقة لا تنفصل عن الأمانة للوديعة الرسولية التي تسلّمتها الكنيسة وحفظتها عبر القرون دون انقطاع. وتشهد كنيسة الروم الأرثوذكس بتاريخها الحي وأديرتها العريقة، كدير القديسة كاترينا في سيناء، ودير القديس سابا المقدّس، ودير القديس جوارجيوس خوجافا في أريحا، وسائر الأديرة المقدّسة، على عراقة وأصالة الإيمان الأرثوذكسي واستمراره، لا بوصفه تراثاً تاريخياً، بل حياة كنسية حيّة. وفي زمن الصوم الأربعيني المقدّس، تذكّرنا الكنيسة بما نصلّيه في أفشين القديس باسيليوس الكبير في ختام خدمة القدّاسات السابق تقديسها، حين نطلب من الله أن يثبتنا «...في إيمانٍ غير منقسم...». فالإيمان، بحسب الفهم الأرثوذكسي، ليس إبداعاً بشرياً ولا ثمرة اجتهاد ثقافي أو توافق زمني، بل إعلان لاهوتي من المسيح الإله نفسه، سلّم من خلال الرسل الأطهار، وحُفظ بأمانة عبر الآباء العظام والجامع المسكونية



١) في سلام النفس

إنَّ الإنسان ما دام متشبِّهًا بخيرات هذا العالم، فلن ينال السلام. إنَّ السلام يقتنى بالشدائد. إن الذي يريد أن يرضي الله عليه أن يمر بالكثير من التجارب. ما من شيء يساهم في السلام الداخلي مثل الصمت، وإذا أمكن الحوار المتواصل مع النفس وقليلًا مع الآخرين. إذن يجب علينا أن نركز أفكارنا ومشتتهانا وأعمالنا على اقتناء سلام الله، ونهتف دائمًا مع الكنيسة جمعاء: «أيها السيد أعطنا السلام».

٢) كيفية المحافظة على سلام النفس

يجب علينا وبكل قوانا أن نجتهد في إنقاذ سلام النفس وألا نغضب عندما يؤذينا الآخرون. يجب الامتناع عن كل غضب وتجنّب العقل والقلب معا كل عمل طائش.

لقد أعطانا القديس غريغوريوس الصانع العجائب مثالًا في الاعتدال. فعندما تقدمت إليه امرأة سيئة السمعة في ساحة عامة، مطالبة إياه وبإدعاء كاذب بأجرة الزنى الذي مارسه معها، فبدل أن يغضب قال بهدوء لصاحبه: «أعطها ما تطلبه». فعندما أخذت المرأة المال صرعها الشيطان ولكن القديس طرده منها بالصلاة.

فإذا كان من غير الممكن ألا نغتاظ، فعلى الأقل ينبغي علينا أن نحفظ لساننا...

لكي نحافظ على السلام يجب طرد الكآبة والمحاولة على حفظ الفكر مسرورًا. عندما لا يستطيع الإنسان أن يرضي حاجاته فمن الصعب عليه أن يغلب القنوط، ولكن هذا يخص النفوس الضعيفة. لكي نحافظ على السلام الداخلي، يجب تجنب إدانة الآخرين. يجب علينا الولوج إلى داخلنا والتساؤل: «أين أنا؟». علينا أن نتجنب ما تُسببه لنا الحواس، ولا سيما النظر، من تشتتٍ وانشغال، لأن هبات النعمة لا تُعطى إلا للذين يُصَلُّون ويعتنون بنفوسهم.

لا شيء يسمو فوق السلام في المسيح الذي بواسطته تُقهر هجمات الأرواح الجويّة والأرضيّة، لأن: «مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِينِ، مَعَ وُلَاةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ». (أفسس ٦: ١٢). إنَّ الإنسان الحكيم يوجّه فكره إلى داخله وينزله إلى قلبه، حينئذ تنيره نعمة الله ويوجد في حالة الهدوء وما فوق الهدوء: الهدوء لأن ضميره في سلام، وما فوق الهدوء لأنه في داخله يعاين نعمة الروح القدس.

أنستطيع ألا نفرح عندما نرى الشمس بأعيننا اللحمية؟ هكذا ووفر أكبر نكون عندما يرى فكرنا وبالعين الداخلية المسيح شمس العدل، عندها نشارك الملائكة فرحها. ويقول الرسول بهذا الصدد: «فَإِنْ سِيرَتْنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ...» (فيلبي ٣: ٢٠).

إنَّ الذي يسير في السلام يجمع، كمن معه ملعقة، هبات النعمة. إنَّ الآباء بما أنهم كانوا في سلام وفي نعمة الرَّبِّ، كانوا يحيون أعمارًا مديدة. عندما ينال إنسان السلام فإن باستطاعته أن يسكب على الآخرين النور الذي يضيء الفكر... ولكن عليه تذكر كلام السيّد: «يَا مُرَائِي، أَخْرِجْ أَوَّلًا الْحَشِيَّةَ مِنْ عَيْنِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَدَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ!» (متى ٥: ٧).

هذا السلام تركه سيدنا يسوع المسيح لتلاميذه قبل آلامه الطوعية ككنز لا يقدر بثمن عندما قال: «سَلَامًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلَامِي أُعْطِيكُمْ». (يوحنا ١٤: ٢٧). وفي نفس المجال يقول الرسول بولس: «وَسَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلِ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ». (فيلبي ٤: ٧).

(٣) في حفظ القلب

يجب علينا أن نسهر على حفظ قلبنا من الأفكار والانفعالات المخالفة للأخلاق: «فَوْقَ كُلِّ حَقِّظٍ أَحْفَظُ قَلْبَكَ، لِأَنَّ مِنْهُ تَخَارَجُ الْحَيَاةُ.» (أُم ٢٣: ٤). هكذا يولد النقاء في القلب: «طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ الْقُلُوبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ.» (متى ٨: ٥).

إنَّ الشيء الصالح الذي يدخل إلى القلب، يجب ألا نبذّه بلا نفع في الخارج، لأن كل ما جمعناه لا يمكن أن يكون بمنأى عن الأعداء المنظورين وغير المنظورين، إلّا إذا حافظنا عليه مثل كنز ثمين في أعماق قلبنا.

إن القلب الذي تلهبه النار الإلهية يغلي عندما يكون مملوءاً ماءً حيّاً. فإذا انسكب هذا الماء إلى الخارج، برد القلب وأصبح الإنسان كالجليد.

(٤) في انسحاق القلب

إنَّ الذي يصبو إلى الخلاص يجب أن يكون قلبه مستعداً للانسحاق والتوبة. «فَالَّذِيحَةُ لِلَّهِ رُوحٌ مُنْسَحِقٌ. الْقَلْبُ الْمُتَخَشِّعُ الْمُتَوَاضِعُ مَا يَرْذُلُهُ اللَّهُ.» (مزمو ١٧: ٥٠).

عندما يكون الفكر منسحقاً يستطيع الإنسان أن يعبر بحدوء فوق فخاخ الشيطان الذي يهدف إلى تشويش الفكر وزرع الزؤان فيه كما ورد في الكلام الإنجيلي: «فَجَاءَ عَبْدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟» (متى ١٣: ٢٧). لكن الإنسان إذا ما حافظ على قلب متواضع وأفكار هادئة، فإن جميع هجمات الشيطان تبقى دون نتيجة.

«إن انسحاق القلب يبدأ بمخافة الرب، كما يقول القديس بونيفاتيوس.» ومن هذه المخافة يولد التيقظ ثم السلام الداخلي والضمير الذي يسمح للنفس أن ترى قبحها كما في ماء صافٍ نقي. خلال حياتنا كلها لا نعمل سوى الإساءة إلى عظمة الرب، فيجب علينا إذًا أن نتّضع أمامه طالبين غفران خطايانا.

سؤال: هل يستطيع إنسان سقط بعد أن كان في النعمة، أن ينهض من جديد؟

الجواب: نعم. كمثّل الناسك الشاب الذي ذهب إلى العين يملأ ماءً فالتقى بامرأة فسقط معها في الزنى. فعندما عاد إلى قلايته وهو عالم بسقطته تابع حياته النسكية بالرغم من مشورات الشرير الذي حاول أن يبعده عن طريقه مُعللاً ذلك بأنه قد خطئ. لكن الله كشف هذا الأمر لمتوحد متقدم وكلفه بأن يذهب إلى ذلك الراهب الشاب ويثني عليه لاتنصّاره على الشيطان.

عِنْدَمَا تَتُوبُ تَوْبَةً صَادِقَةً عَنْ خَطَايَانَا، وَنَعُودُ بِكُلِّ قُلُوبِنَا إِلَى سَيِّدِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، يُفْرَحُ بِنَا، وَيَدْعُو جَمِيعَ النُّفُوسِ الصَّادِقَةِ إِلَى وَلِيَمَةِ الْفَرَحِ، مُظْهِرًا لَهَا الدَّرْهَمَ الَّذِي عَثَرَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ ضَائِعًا.

فلا نترددن إذًا من التوجه نحو إلهنا الرحوم ولا نرتعبن في اللامبالاة

والياس. إن اليأس هو فرحة الشيطان الكبرى، إنّه الخطيئة المميتة التي يتكلم عنها الكتاب «تُوجَدُ خَطِيئَةٌ لِلْمَوْتِ» (١ يوحنا ١٦: ٥).

إنَّ انسحاق القلب يعني أيضًا ألا نقع مرة أخرى في نفس الخطيئة.

(٥) في التجارب

يجب أن نحرّر أنفسنا من كل فكر غير نقي خاصة عندما نقدم صلواتنا إلى الله، ذلك لكي لا نمزج التثانة مع الطيوب.

يجب أن نطرد منذ اللحظة الأولى كل فكر شرير يلقيه المُجَرَّبُ، وأن نسهر على حراسة نفوسنا، ولا سيما من الشرهية، والبخل، والعُجب. فإذا تصدّينا منذ البداية لسهام الشرير المصوّبة إلينا بغشٍّ، نكون قد أحسنّا الجهاد. فالشيطان لا سلطان له إلّا على الذين يخضعون لإيحاءاته الشريرة، أمّا الذين طهّروا أنفسهم من كل هوى، فلا يستطيع أن ينال منهم، بل يقف خارجًا يحاول إغواءهم.

أيستطيع الإنسان وخاصة في صباه أن يتجنب التوتر الحاصل عن التجارب الشهوانية؟ يجب أن يصلي إلى السيد كي يُحمد منذ بدايتها لهيب الرذيلة، قبل أن يستعر في القلب.

(٦) في تمييز الأرواح

عندما ينال الإنسان في قلبه نعمة إلهية فهو يبتهج. ولكن عندما يكون هذا الشيء شيطانيًا فيضطرب.

(٧) في الصلاة

إنَّ الذين عقدوا العزم حقًا على خدمة الله، يجب عليهم أن يجاهدوا بلا انقطاع لحفظ ذكره في أعماق قلوبهم، وأن يواظبوا على صلاة يسوع، مردّدين في داخلهم: «أيها الرب يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطي».

فإذا سلكنّا على هذا النهج، واجتنبنا كلّ ما يشتت النفس، وحفظنا ضميرنا في سلام، استطعنا أن نقرب من الله ونتحد به. لأنه كما يقول القديس إسحق السوري: «ما عدا الصلاة المستمرة ليس من وسيلة أخرى أفضل للاقتراء من الله» (الموعظة ٦٩).

أمّا داخل الكنيسة، فمن المستحسن أن تُطبق جفوننا، كي يبقى الذهن مستغرقًا في الصلاة. فإذا غلبنا النعاس، فلنفتح أعيننا ونوجّه نظرنا إلى أيقونة مقدسة، أو إلى قنديل مشتعِل أمامها.

إذا تشتّت فكرنا أثناء الصلاة، فلنّضع أمام الله، ولنطلب منه المغفرة. لأنَّ القديس مكاريوس الكبير يقول: «إِنَّ الْعَدُوَّ لَا يَسْعَى إِلَّا لِيَصْرِفَ فِكْرَنَا عَنْ اللَّهِ، وَعَنْ مَخَافَتِهِ، وَعَنْ مَحَبَّتِهِ.» (الموعظة ٢: ١٥).

عندما يتحد الفكر والقلب في الصلاة، ولا يعود شيء يعكّر صفو النفس، يمتلئ القلب بالحرارة الإلهية، ويشرق نور المسيح «فِي الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ»، فيملؤه سلامًا وفرحًا. (أفسس ١٦: ٣)

بشafaات القديس سيرافيم أيُّها الرب يسوع المسيح إلهنا إرحمنا. آمين

كانت تذكره هذه المرة بالدموع.

وكان الناس يعبرون بقرها مسرعين، ولعل أحداً منهم لم يدرك كم من الألم يمكن أن تتسع له زهرة صغيرة. **أَمَّا الرَّبُّ**، فهو وحده يعرف الجراح التي لا تراها العيون، ويسمع الصلوات التي تعجز الكلمات عن التعبير عنها. **«قَرِيبٌ هُوَ الرَّبُّ مِنَ الْمُتَكْسِرِي الْقُلُوبِ، وَيُخَلِّصُ الْمُتَحَقِرِي الرُّوحِ» (مزمور ٣٣: ١٩).**

وهنا يكمن الفرق بين الحزن الذي يعيشه العالم، والحزن الذي تعلّمه الكنيسة. **فالكنيسة** لا تدعونا إلى إبقاء الراقدين مأسورين إلى الأرض بأحزاننا، بل **تعلّمنا** أن نسلّمهم إلى **رحمة الله**. لذلك تتحول الذكرى إلى صلاة، وإلى ذكرٍ في **القداس الإلهي**، وإلى صدقة، وإلى أعمال رحمة، وإلى توبة صادقة تجدد حياتنا نحن أيضاً. ولا يكفي أن نقول إننا لم ننسهم، بل ينبغي أن نبحث **أمامَ الرَّبِّ** ونقول: «يا رب، أرح نفس عبدك».

فالذكرى وحدها لا تخلص أحداً، **لأنّ الخلاص** ليس ثمرة المشاعر البشرية، بل **عطية نعمة الله**. غير أن المحبة التي وُلدت في **المسيح** لا تقف صامتة أمام الموت؛ إنها تصلي بتواضع، من غير أن تفرض شروطها **على الله**، ولا أن تقتحم أحكامه، بل تنثق برحمته وتنتظر مواعيده. ولهذا **أعطانا المسيح رجاءاً** لا يستطيع الموت أن يبدّده، إذ قال: **«أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا» (يوحنا ١١: ٢٥).**

ولعل زهرة القرنفل البيضاء التي كانت تحملها تلك المرأة لم تكن مجرد علامة وفاء للذكرى عزيزة، بل كانت اعترافاً صامتاً بأن الكلمة الأخيرة ليست للقبر، بل **للمسيح القائم من بين الأموات**.

فإذا تذكرت إنساناً رحل، فلا تدع الذكرى تقف عند حدود الدمع. اجعلها صلاة، واجعلها ذكراً في **القداس الإلهي**، واجعلها صدقة وعمل رحمة، واجعلها سبباً لعودة أمانة إلى حضن الكنيسة.

فالحبة الحقيقية لا تشدّ الإنسان إلى تراب الأرض، بل ترفعه بالصلاة إلى **رحمة المسيح**، وتنتظر برجاء اليوم الذي يغلب فيه الموت نهائياً، **ويشرق نور القيامة الذي لا يغرب**.

وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**: أن الموت ليس سوى الجسر الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الحياة الأبدية والسعادة الحقيقية.

والقديس يوحنا السلمي يقول لنا: «يا ربّي يسوع المسيح، ارحمني. باسم يسوع حارب أعداء نفسك... فليس هناك سلاح أقوى، لا في السماء ولا على الأرض!»



من الموت... إلى الحياة الأبدية

الذكرى تتحول إلى صلاة

- صلاة من أجل الراقدين
- ذكر في القداس الإلهي
- صدقة وعمل رحمة
- توبة تجدد حياتنا

«أنا هو القيامة والحياة»
من آمن بي ولو مات فسيحيا
(يوحنا 11: 25)

الكنيسة جسر الرجاء

إن الموت ليس سوى الجسر الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الحياة الأبدية والسعادة الحقيقية. — القديس يوحنا الذهبي الفم.

يا ربّي يسوع المسيح، ارحمني. باسم يسوع حارب أعداء نفسك... فليس هناك سلاح أقوى؛ لا في السماء ولا على الأرض! — القديس يوحنا السلمي

المحبة الحقيقية لا تشدّ الإنسان إلى تراب الأرض، بل ترفعه بالصلاة إلى رحمة المسيح، وتنتظر برجاء اليوم الذي يغلب فيه الموت.

شذرات روحية من جبل آثوس المقدس

عندما تتحول الذكرى إلى صلاة:

قفي قليلاً يا نفسي، وتأملّي في صمتٍ وخشوع. فليس كل صامتٍ فارغ القلب، بل إن كثيرين يصمتون لأنهم يحملون في أعماقهم أسماً كانت يوماً نبض حياتهم، وتفاصيل أيامهم، ثم غابت عن أنظارهم وبقي صداها حياً في القلب.

تراهم يمشون بهدوء، يحملون زهرة، ويوقدون شمعةً، ويقفون بخشوع أمام أيقونة **المسيح** أو **قديسه**. لا يطلبون أن يعود الزمن إلى الوراء، ولا يتشبثون بماضي لن يعود، بل يرفعون قلوبهم إلى **الله**، راجين أن **يرحم** ذاك الذي انتقل من هذا العالم.

رأيت يوماً امرأة مسنة تمسك بزهرة قرنفل بيضاء. كانت شفتاها تتحركان بصلاة لا يكاد يُسمع لها صوت. لم تكن تسترجع الماضي لتعيش فيه، بل كانت تقف **أمام المسيح**، رافعةً إليه صلاةً من أجل إنسانٍ أحبته، تذكر اسماً طالما ردّته في صلواتها عبر السنين، غير أنها



بطيركية الروم الأرثوذكس حارسة وديعة الأماكن المقدسة صفحات من تاريخ الأمانة والجهاد



كنيسة القيامة:

إنَّ كنيسة القيامة، أو القبر المقدس كما شاع أن تُسمَّى، هي أقدم وأهم كنيسة، من الناحية الدينيَّة، في المسيحيَّة وفي تاريخ البشريَّة، لأنَّ فيها صُلب مخلص العالم، ودُفن، وقام من بين الأموات. وهي أقدس كنيسة في المسكونة، لأن ملايين البشر وجدوا ويجدون فيها التعزية والراحة والرجاء.

وأهم المحطات في تاريخ الكنيسة هي:

سنة ١٣٧م: أمر إمبراطور روما هادريانوس، لكي يمنع التدفُّق الكبير للحجاج إلى موضع استشهاد المسيح، بردم الجلجثة وقبر المسيح بالتراب. وأقام فوقهما معبدًا لأفروديت، إضافةً إلى مبانٍ عامة أخرى.

من سنة ٣٢٥ إلى ٣٣٥م: هُدم المعبد الوثني الذي بناه هادريانوس، بمرسوم من الإمبراطور القديس قسطنطين الكبير، وبعد العثور على الصليب الكريم وسائر الأماكن المقدسة، وباقتراح من الأسقف مكاريوس، شُيِّدت سنة ٣٢٥م كنيسة القيامة الشهيرة على يد الإمبراطور قسطنطين الكبير ووالدته القديسة هيلانة، وقد وصفها المؤرخ أفسابيوس في كتابه «حياة قسطنطين الكبير».

بدأ البناء سنة ٣٢٥م، واكتمل سنة ٣٣٥م، وفي السنة التالية، أي سنة ٣٣٦م، جرى تدشين الكنيسة على يد الأساقفة الذين شاركوا في مجمع صور.

سنة ٦١٤م: دُمِّر هذا الصرح العظيم الذي شيَّده قسطنطين الكبير عندما استولى الفرس، بقيادة الملك كسرى الثاني، على أورشليم، فحربوا الكنيسة، وأخذوا معهم الصليب الكريم غنيمةً، كما سبوا البطريك زكريا. وفيما بعد، انتصر إمبراطور الروم هراقلوس على الفُرس، وأعاد الصليب الكريم إلى أورشليم سنة ٦٢٩م، كما أعاد البطريك

زكريا. وفي الرابع عشر من أيلول رُفِع الصليب الكريم على الجلجثة.

سنة ٦٣٧م: استولى العرب على أورشليم، إلَّا أنَّ الأماكن المقدسة بقيت آمنة. واعترف الخليفة عمر بن الخطاب، في وثيقة وجَّهها إلى البطريك صفرونيوس الأول، بالحقوق المكتسبة لليونانيين في الأماكن المقدسة، ومنحهم الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم العهدة (العُمريَّة).

ومنذ ذلك الحين، تتمتع بطيركية الروم الأرثوذكس في أورشليم، وما تزال حتى اليوم، بالحقوق والامتيازات الثابتة غير القابلة للإلغاء للروم في الأماكن المقدسة، لمجد المسيح والأرثوذكسية الجامعة.

سنة ١٠٠٩م: دُمِّرَت الكنيسة تدميرًا كاملاً على يد الخليفة الحاكم.

من سنة ١٠٢٤ إلى ١٠٤٨م: بعد اتفاق بين الإمبراطور رومانوس الثالث والخليفة الظاهر، أُعيد بناء الكنيسة بمساعدة الإمبراطورين ميخائيل البفلاغوني وقسطنطين مونوماخوس.

ونعرف وصف هذه الكنيسة من خلال الرحالة، الحاج والراهب الروسي دانيال، الذي وصف بدقة أيضًا سائر الأماكن المقدسة، والتي تمت بين عامي ١١٠٦ و١١٠٧م.

من سنة ١٠٩٩ إلى ١١٤٩م: استولى الصليبيون على أورشليم، وقاموا، على فترات متعاقبة، بترميم الكنيسة، لوضع بصمة لوجودهم.

سنة ١٥٤٥م: جدَّد البطريك جرمانوس القبر المقدس، وغطَّى القبة بالرصاص.

سنة ١٨٠٩م: في الثلاثين من أيلول، تعرَّضت الكنيسة للدمار بعدما أُضرم فيها أحد الأرمن النار.

وفورًا، وبمبادرة من بطريك القسطنطينية بوليكاربوس، بدأت إعادة بناء الكنيسة، وأشرف على الأعمال المهندس المعماري اليوناني كومنينوس الميثيليني. وفي سنة ١٨١٠م جرى تدشين الكنيسة؛ وهو اليوم نفسه

الذي دُشنت فيه الكنيسة أول مرة في عهد الإمبراطور قسطنطين .

سنة ١٨٦٧م: وبنفقة الدول الكبرى آنذاك، وهي روسيا وفرنسا وتركيا، جرى ترميم القبة الكبرى التي كانت قد تضررت بسبب زلزال **سنة ١٨٣٤م**.

سنة ١٩٥٣م: بعد اتفاق بين كنائس أورشليم: الروم، واللاتين، والأرمن، بدأت بصورة مشتركة أعمال صيانة هذا الأثر المسيحي، وهي مستمرة حتى اليوم.

أما النظام المعمول به اليوم في كنيسة القيامة وسائر الأماكن المقدسة، فقد نُظِم بموجب معاهدة باريس **سنة ١٨٥٦م**.

نظام الأماكن المقدسة:

عند احتلت فلسطين على يد العرب **سنة ٦٣٨م**، منح الخليفة عمر بن الخطاب، آخذًا بعين الاعتبار أحكام الشريعة الإسلامية، الأمان على الحياة والممتلكات، وحرية ممارسة الدين والعبادة، لـ «**الجنس الملكي**» (Βασιλείον Γένος) **للروم**.

وبموجب العهدة (العمرية) الشهيرة، وهي الوثيقة الخطية التي منحها الخليفة إلى بطريك أورشليم آنذاك صفرونيوس (٦٣٤-٦٣٨)، جرى الاعتراف بالحقوق السيادية للروم الأرثوذكس وتنشيتها في الأماكن المقدسة والمزارات المقدسة في الأرض المقدسة. كما نصّت هذه العهدة الرسمية على أن رهبان وإكليروس بطريركية الروم الأرثوذكس في **أورشليم**، على اختلاف درجاتهم، يُعفون من دفع ضريبة الرأس، وأن يُؤمر الولاة بأن يكونوا لطفاء ومتسامحين مع المسيحيين، بينما يلتزم الحجاج الأجانب الوافدون إلى الأماكن المقدسة بدفع مبلغ من الفضة إلى **بطريك الروم الأرثوذكس** علامة على الخضوع الروحي والاعتراف بسلطته.

ويذكر النص العربي لهذه الوثيقة، المحفوظ في إحدى مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس، من بين ما يذكر: «... إن هذا المرسوم الصادر عن عمر بن الخطاب هو عهدٌ وميثاقٌ مُنح إلى صاحب الغبطة والقداسة صفرونيوس، بطريك أمة الروم، على جبل الزيتون في أورشليم. ويشمل أيضًا العلمانيين، والإكليروس، والرهبان والراهبات...».

«فلتتعدوا جميعًا بأمنٍ كاملٍ ومطلقٍ فيما يتعلق بحياتهم، وكنائسهم، ومعتقداتهم، وجميع الأماكن المقدسة التي يملكونها داخل المدينة أو خارجها، أي القمامة (كنيسة القيامة)، وكنيسة بيت لحم حيث وُلد يسوع، والكنيسة العظمى، والمغارة ذات الأبواب الثلاثة... وهؤلاء، وسائر المسيحيين الموجودين هنا، من الجورجيين، والحبشيين، والفرنجية، والأقباط، والسريان، والأرمن، والنساطرة، واليعاقبة، والموارنة، الذين يأتون حجاجًا، يكونون خاضعين للبطريك المذكور».

«ولیکن لهم التقدّم على جميع الآخرين، بحسب ما مُنح لهم... وكل مؤمن حقيقي، رجلًا كان أو امرأة، وقاضٍ أو حاكم يمارس القضاء على الأرض، يجب أن يحترم ما منحناه لهم بمطلق الصلاحية، سواء كان غنيًا أو فقيرًا، مسلمًا أو مسلمة، أو من أتباع النبي». «ولهذا السبب أصدرنا من أجلهم هذا المرسوم...».

بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين **سنة ١٤٥٣م**، توجّه **بطريك**

الروم الأرثوذكس في أورشليم أناسيوس الرابع (١٤٥٢-١٤٥٣...) سرًا إلى القسطنطينية، وعرض على السلطان العثماني المحتل محمد الثاني عهدة الخليفة عمر بن الخطاب، وسائر الوثائق اللاحقة المتعلقة بالأماكن المقدسة، فتمكّن من المحافظة على حقوق وامتيازات **الروم الأرثوذكس** في الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة، وتجديدها، وذلك بموجب الخط الشريف (الفرمان السلطاني) الآتي، الذي ينص، من بين أمور أخرى، على ما يلي:

«... ووفقًا لتلك الأحكام، وامتدادًا للرحمة التي أظهرت لهم منذ القديم، فقد أولتهم مملكتنا الرحمة أيضًا، وأمرت بهذا الفرمان الشريف أن يقوم جميع الولاة في المقاطعات التابعة لمملكتي، بزا وبجرا، بحماية بطريك أورشليم ورهبانه، وألا يتعرض لهم أحد بأي أذى».

«وأما كل من الوزراء العظام، أو العلماء، أو الحكام، أو رجال بلاطي، أو أي شخص من المسلمين، إذا حاول، بدافع المحاباة أو الطمع في المال، أن ينتقض المراسيم المقدسة والرفيعة القديمة، فليكن واقفًا تحت غضب الله والنبي...».

وعندما خضعت فلسطين للحكم العثماني **سنة ١٥١٧م**، منح السلطان سليم الأول وثيقة سلطانية رسمية إلى بطريك الروم الأرثوذكس في **أورشليم دوروثاوس الثاني عطالله (١٥٠٥-١٥٣٧)**، اعترف فيها لكنيسة أورشليم بالملكية الكاملة والمطلقة للأماكن المقدسة في الأراضي المقدسة، كما اعترف لها بالحرية الكاملة في ممارسة واجباتها الدينية والطقسية. وجاء في هذه الوثيقة السلطانية، المعروفة باسم «**المرسوم الخاص بالأماكن المقدسة**»، ما يلي:

«... فدُعِيَ بطريك الروم عطالله (دوروثاوس)، وحضر مع سائر الرهبان، وطلب أن تعود الكنائس، والأديرة، والأماكن المقدسة الواقعة داخل أورشليم وخارجها، إلى ملكيتهم واستعمالهم، كما كانت منذ البداية، وفقًا لعهدة عمر المقدسة ومراسيم الملوك السابقين. لذلك أمرت أنا أيضًا، بهذا المرسوم المقدس، أن تكون تحت سلطانتهم...».

«وأن يكونوا أحرارًا تمامًا من جميع الجبايات القسرية، وألا يضايقهم أي شعب آخر. ووفقًا لهذا المرسوم المقدس الصادر عني، يكون بطريك الروم هو المتقدم على جميع الأمم. ووفقًا لعهدة عمر بن الخطاب، وبحسب مراسيم الملوك السابقين، فقد منحت أنا أيضًا الحقوق نفسها، وأمرت بهذا المرسوم المقدس أن يُعمل بها على الوجه المحدد...».

بعد أن كانت الحقوق السيادية للروم الأرثوذكس في الأماكن المقدسة بالأراضي المقدسة ثابتة ومسلمًا بها، استطاع اللاتين، مستغلين حرب الدولة العثمانية ضد النمسا وبولندا والبندقية وروسيا، وهزيمة تركيا أمام روسيا القيصرية، وتهديد فرنسا بالتحالف مع أعداء الدولة العثمانية إذا لم تُلبّ مطالبها، أن يتسللوا إلى الأماكن المقدسة ويستولوا على بعضها. غير أن الروح الرومية الأرثوذكسية تمجدت مرة أخرى، ونالت حقها من جديد.

وبفضل الجهود الدؤوبة التي بذلها بطريك الروم الأرثوذكس في **أورشليم بارثينيوس (١٧٣٧-١٧٦٦)**، وبفضل المساهمة السخية والكاملة من الأمة الرومية الأرثوذكسية، تمّ تسديد الديون المالية المترتبة على أخوية القبر المقدس.

وصدر سنة ١٧٥٧م المرسوم الإمبراطوري النافذ عن السلطان عثمان الثالث، متضمنًا عرضًا مفصلاً لتاريخ الأماكن المقدسة، وللمطالب اللاتين وسائر الطوائف الرامية إلى انتزاع حقوق الروم الأرثوذكس فيها. وبموجب هذا المرسوم الإمبراطوري، أنصف الروم الأرثوذكس من جديد، واستُعيدت الأماكن المقدسة إلى أصحابها الشرعيين، وثُبّتت تثبيتًا كاملاً ونهائيًا جميع حقوقهم وامتيازاتهم في الأراضي المقدسة.

ويذكر أنه، بموجب هذا المرسوم، وفي ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٧٥٧، أُقيم بصورة دائمة راهبٌ يوناني من أخوية القبر المقدس حارسًا للقبر المقدس، كما أُعيدت إلى الروم الأرثوذكس جميع المزارات الواقعة داخل كنيسة القيامة، التي كان اللاتين قد استولوا عليها.

وفي ٢٩ تشرين الثاني عاد قبر والدة الإله في الجسمانية إلى عهدة الروم الأرثوذكس، وفي ١١ كانون الأول عادت كنيسة المهدي في بيت لحم إلى عهدهم أيضًا. ثم صادق السلطان مصطفى الثالث، خليفة السلطان عثمان الثالث، على هذا المرسوم الإمبراطوري. وفي خاتمة النص ورد التأكيد بوضوح على ما يلي:

«من الآن فصاعدًا، لا يجوز للفرنجية أن يضايقوا الروم (اليونانيين) لأي سبب أو بأي ذريعة، بل يجب أن تتوقف نهائيًا جميع الأضرار والمؤامرات الموجهة ضد الروم...».

وبعد سنوات قليلة، أدى خضوع السلطان عبد المجيد للضغوط الفرنسية، التي مارستها فرنسا دفاعًا عن المطالب اللاتينية في الأماكن المقدسة، إلى ترسيخ سيطرة اللاتين عليها، وكان ذلك أحد الأسباب البعيدة لاندلاع حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦).

فقد أعلنت فرنسا وإنكلترا، المتحالفتان مع الدولة العثمانية، الحرب على روسيا، التي كانت تطالب بإعادة النظام السابق في الأماكن المقدسة، وضمان حقوق الأرثوذكس، والاعتراف بها دولةً حاميةً لهم في الأرض المقدسة.

أما معاهدة باريس، الموقعة في ٣١ آذار سنة ١٨٥٦، فقد كرّست مواقف الدول الغربية في المسألة الشرقية، وأعادت التأكيد على مبدأ سلامة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها، لكنها لم تسمح لأي دولة بالتدخل في شؤونها الداخلية.

وهكذا، ضمنت المراسيم العربية والعثمانية الرسمية السابقة والمتعاقبة سيادة الروم الأرثوذكس في الأراضي المقدسة، واعترفت بالنظام الإداري القائم سابقًا في الأماكن المقدسة.

ورددًا على محاولة فرنسا تغيير الوضع القائم (Status Quo) في الأماكن المقدسة على حساب الروم الأرثوذكس، نصّت المادة التاسعة من معاهدة باريس بوضوح على ما يلي:

«... ومن المفهوم أنه لا يُمنح بأي حال من الأحوال للدول المذكورة حق التدخل، سواء بصورة جماعية أو فردية، في علاقة صاحب الجلالة السلطان برعاياه، أو في الإدارة الداخلية لإمبراطوريته...».

ثم جاءت معاهدة برلين (١٣/١ تموز ١٨٧٨)، ولا سيما المادتان

٦٢ و٦٣، فمنحت جميع رعايا الدولة العثمانية حقوقًا متساوية بغض النظر عن الدين، وثبّتت النظام الخاص بالحج إلى الأماكن المقدسة، وضمنت حماية الإكليروس، والأماكن المقدسة، والممثلين الدبلوماسيين.

أما العبارة الحاسمة التي أكدت حقوق وامتيازات الروم الأرثوذكس في الأماكن المقدسة، فقد نصّت على أن: «... لا يجوز أن يطرأ أي تغيير على النظام القائم (Status Quo) في الأماكن المقدسة».

إن القانون الذي تُدار بموجبه اليوم بطريركية الروم الأرثوذكس في أورشليم قد وقّعه الملك الأردني الحسين بن طلال في ٢٦ آذار سنة ١٩٥٨، في عهد بطريرك أورشليم بندكتوس.

وهو، من الناحية الزمنية، أحدث تشريع رسمي يكفل الطابع الرومي الأرثوذكسي لبطريركية أورشليم، ويضمن الامتيازات التاريخية العريقة لرهبان أخوية القبر المقدس للروم الأرثوذكس في الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة.

وينقسم هذا القانون إلى تسعة أقسام، وتتضمن مواد الخمس والثلاثون الأحكام المتعلقة بواجبات البطريرك، وتشكيل المجمع المقدس واختصاصاته، وبنية وعمل ما يُعرف بالمجلس المختلط والمحالس المحلية للطوائف، وانتخاب البطريرك والمطارنة والأساقفة الرعاة وتعيينهم، والأحكام الخاصة بعزل البطريرك والقائم مقام الكرسي البطريركي، والنظام القانوني والتنظيم الداخلي للأخوية القبرية، وأخيرًا مختلف الأحكام ذات الطابع المالي والإداري.

ومن خلال جميع ما عرضناه آنفًا بالتفصيل، نعتقد أنه يتضح بصورة جلية أنّ الطابع الرومي الأرثوذكسي لبطريركية أورشليم، والحقوق والامتيازات التاريخية العريقة للروم الأرثوذكس في الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة، لا تزال محفوظة في أيدي الروم، بمعجزة من الله.

وهي لا تتعرض للخطر بقدر ما تتعرض له بسبب العوامل الخارجية، بل بسبب أعمال وإهمال أبناءنا، الذين كثيرًا ما فتحوا، في الماضي كما في الحاضر، الباب الخلفي بأيديهم. لا مزيد من الأبواب الخلفية...

ملحوظة: والمقصود بـ «الباب الخلفي» أن الكنيسة وحقوقها التاريخية لا تُنتزع عادةً بالقوة من الخارج، بل عندما تجد في الداخل من يفرط بالأمانة، أو يتهاون في المسؤولية، أو يتواطأ مع الضغوط الخارجية. فالتفريط الداخلي، والتآمر، وخيانة الأمانة العظمى المتمثلة في الحفاظ على الوجود الأرثوذكسي التاريخي والإيماني واللاهوتي والخلاصي، هي الباب الخلفي الذي ينفذ منه الآخرون إلى ما عجزوا عن بلوغه من الباب الأمامي. وهذه أمانة سنقف جميعًا عنها أمام المسيح، كلمة الله، الديّان العادل، كما سنقف عنها أيضًا أمام التاريخ، الذي يشهد لمن حفظ الوديعة ولمن فرط بها.

ولذلك فإن رجاء الكنيسة وثباتها لا يقومان على قوة البشر، بل على وعد الربّ نفسه، فهو مرساة نفوسنا المؤمنة والثابتة، وهو القائل: «وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنَى كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا.» (متى ١٦: ١٨)

المصدر:

<https://www.onisimos.gr/i-istoria-tou-naou-tis-anastasews/>

الفصل الرابع عشر

« وَهَكَذَا اعْتَبِرُوا فِي جِيلٍ فَجِيلٍ أَنَّ جَمِيعَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ لَا يَزُولُونَ. وَلَا تَخْشَوْا مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ الْخَاطِئِ لِأَنَّ بَحْدَهُ يَأْوُلُ إِلَى قَدَرٍ وَدَوْدَ ». (١ مكابيين ٢ : ٦١ - ٦٢).

وجاءت الضربة الثانية على يد القاضي، وكانت أقسى من الأولى وتركت أثراً لا يُمحى.

لقد وصل بعد أيام قليلة وانقضَّ هو الآخر على الدير مباشرة كالصاعقة. لقد وصل بنظرات متوحشة وشريرة، كنظرات الوحش المفترس، وكان برفقته شرطيان. ولم يلق

بالأ إلى الراهبتين اللتين التقاهما خارج الدير وسألتاه راجيتين عن سبب حضوره. وكان على وشك أن يخلع الباب، مُظهرًا الاحتقار الكامل لقوانين الأديار. ثم دخل مباشرة على نكتاريوس في مكتبه الصغير.

فاضطربت الجماعة كلها، وراحت جميع الراهبات تقريبًا يبكين، وخصوصًا المريضات منهن، وكنَّ يصرخن «يا رب ارحم».

وحافظ نكتاريوس على رباطة جأشه، واستقبل الرجل مبتسمًا وسأله بلطف: «عمن تبحث؟»

«يَا لَكَ مِنْ رَاهِبٍ! لَقَدْ حَوَّلْتُ هَذَا الدَّيْرَ إِلَى حَرِيمٍ، وَلَا تَحْجُلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ أَيْنَ هُوَ الْبَيْتُ الَّذِي تُلْقِي فِيهِ لُقَطَاءَكَ مِنْ هَذِهِ اللَّابِسَاتِ الْأَثْوَابِ، هَذِهِ الْمُرَائِيَّاتِ الشَّقِيقَاتِ؟»

فنظر نكتاريوس بحزن، وحاول أن يتكلم، ولكن دون جدوى. فأشار بإصبعه إلى السماء.

«ألا تقول شيئًا؟»

لا شيء. لم تُسمع أية إجابة.

فضرب القاضي بقبضته المكتب وصرخ:

«ألا تقول شيئًا؟»

ومن جديد لم تُسمع أية إجابة. فنظر إليه نكتاريوس بعينين كالأطفال وبقي صامتًا.

ففقد القاضي صوابه وقال للمرة الثالثة:

«ألا تقول شيئًا؟»

ثم وقف مهددًا:

«قل لي حالًا أين يوجد البئر الذي تلقي فيه الأطفال عند ولادتهم، وإلا فسألقيك أرضًا وأضع قدمي على عنقك وأنتزع شعرات ذقنك واحدة واحدة، أيها القذر»

فقالت الاخت كساني وهي تجهش بالبكاء:

«يا صاحب السيادة...»

لكن نكتاريوس بقي صامتًا. وجمد في مكانه ونظره مثبت إلى السماء وهو يصلي بالتأكيد.

وعندها طلب القاضي الراهبات للاستجواب كل واحدة على حدة في غرفة أخرى. ثم دخل

على المريضات، حتى انه دخل على راهبة كسيحة تدعى إفيكي، وكانت تقوم بوظيفة

رئيسة الدير في المدة الأخيرة.

ثم أمر الشرطيَّين بِنَزْعِ الْأَعْطِيَّةِ، لَعَلَّهُ قَدْ أَخْفَى تَحْتَهَا أَحَدَ الْأَطْفَالِ الْمُؤَلُودِينَ حَدِيثًا. وأخيرًا عاد

إلى الشيخ وقال له ختامًا وهو يستشيط غيظًا:

«عَدَا أَرْجُكَ فِي السَّحْنِ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الْوَسَخُ. وسوف أرسل إلى هنا طبيبًا شرعيًا لإجراء فحص جسدي للجميع. سوف يفحص جميع أجسادكن الساقطة... والويل لك أيها الباشا العجوز. وسوف يعاين أولًا الفتاة التي أغريتها مؤخرًا، الفتاة فراغودي».

فقال نكتاريوس:

«الله يعلم إن كان كل ما تقول صحيحًا».

«اخرس!»

وتابع كلامه وصراخه وتهديداته للجميع. ثم اختفى بسرعة البرق.

وراح الجميع في الدير ينتحبون، ينتحبون ويئنون بيأس. ثم صرخت إحدى الراهبات، وكانت من ماني، ولم تكن تحمل مثل هذه الإهانة:

«يجب أن نقدم شكوى يا صاحب السيادة. ألم يعد هناك من عدل في اليونان؟ على الإطلاق؟ هل يستطيع أي شخص كان أن يأتي ويدوسنا بقدميه؟»

فأدار الشيخ وجهه الهادئ نحو وجه الراهبة الغاضبة وقال:

«إِنَّ الرَّبَّ يَا ابْنَتِي يُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ. وَلَا يَتِمُّ أَيُّ أَمْرٍ مِنْ دُونِ إِزَادَتِهِ. لَا تَتَزَعَّرْ وَلَا تَفْقِدَنَّ الصَّبْرَ. اذْهَبِي بِسُرْعَةٍ إِلَى الْكَنِيسَةِ لِتَمَجِّدَ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ، فَإِنَّ كُلَّ مَا حَدَّثَ هُوَ مِنْ أَجْلِهِ».

فقال راهبة أخرى من ميثانا:

«لكن يا صاحب السيادة، ألم يجدر بك على الأقل أن تقول شيئًا؟ لقد تركته يتلفظ بكل تلك الافتراءات من دون أن تبرر نفسك».

«أما بالنسبة إليّ، فاني لن أبرر نفسي. صلّين من أجل هذا الرجل، فاني أرى عليه العذابات الكثيرة. أرجوكن أن تصلّين فالرّب قد صُلب من أجله هو أيضًا».

ورفع عينيه من جديد نحو العلاء وجمد في مكانه.

يتبع في العدد القادم

الكتاب المقدس

العهد القديم

للتعليم الديني والآبائي



بالعهد القديم من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية على يد اثنين وسبعين مترجمًا موحيًا إليهم من الله، كانوا يُتقنون بإحكام كامل اللغتين العبرية واليونانية.

هذه الترجمة المعيّنة والفريدة دُعيت «الترجمة السبعينية» (O)، وهي تُعتبر عالميًا الترجمة الأكثر موثوقية.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ رُسُل المسيح يستخدمون في النصوص المكتوبة للعهد الجديد اقتباسات وإشارات مأخوذة من الترجمة السبعينية.

إنّ العهد القديم هو كتاب مقدّس وموحي به من الله لدى المسيحيين. فهو إعلان الله المكتوب للبشر، ولا يمت بصلة إلى أساطير الشعوب وعباداتها الوثنية.

كان كُتّاب العهد القديم أناسًا مُقدّسين، أناسًا استُنبِروا وقادهم الرُّوح القدس في تدوين كلمة الله، وفي إعلان أنّ الله نفسه سوف يفتقد العالم، لأنّه هو مخلص العالم.

وعندما جاء ربُّنا يسوع المسيح إلى العالم، علّم نحو ثلاث سنوات وتبيّن الأمور التي تتعلّق بالفردوس وملكوته وكنيسته. وفي الوقت نفسه أعطى وصية لتلاميذه أن يذهبوا إلى العالم كلّه، وأن يحملوا في كلّ مكان بشارة ملكوته المفرحة.

لقد نقل الرسل ومعاونوهم شفهيًا إنجيل الخلاص. ولكن عندما فرضت احتياجات الكنيسة ذلك، كتبوا بمداد على الورق مشيئة الله. وهكذا كُتب أيضًا العهد الجديد بعد الميلاد، وهو يحتوي على سبعة وعشرين كتابًا مكتوبًا مباشرة باللغة اليونانية.

ومع ذلك، فإنّ العهد الجديد، من دون العهد القديم، كان سيبقى غير مفهوم إطلاقًا، وعصيًا على الفهم الصحيح.

إنّ العهد القديم والعهد الجديد معًا يُشكّلان الكتاب المقدّس. وقد كُتبت الأسفار الأولى من الكتاب المقدّس نحو سنة ١٠٠٠ قبل

«الكتاب المقدّس المُوحى به من الله»

«الكتاب المقدّس والتقليد المقدّس»

أ) «الكتاب المقدّس الموحى به من الله»:

الإنسان هو الخليقة الوحيدة على الأرض التي منحها الله الحرية، وميّزها بالعقل والضمير، ودعاها إلى الحياة الأبدية. ففي أعماق نفسه، وفي ضميره، يحمل بطبيعته «كتابًا مقدّسًا» غير مكتوب، أي تلك الموهبة الإلهية التي تدفعه إلى محبة الخير والنفور من الشر. غير أنّ هذه الحالة يمكن أن تتشوّه إذا أسكت الإنسان صوت ضميره أو عصاه.

ولهذا السبب، ومنذ الأزمنة السحيقة جدًّا، أعلن الله ذاته للبشر بطرائق متنوعة، وكشف لهم مشيئته، لكي تكون للإنسان بمثابة بوصلة في حياته.

في الأزمنة السابقة للميلاد، أعلن الله ذاته للآباء البطارقة، ولموسى، وللأنبياء، ولسائر الشخصيات المقدّسة في العهد القديم.

غير أنّ الله صار أيضًا إنسانًا على الأرض، متواصلًا بصورة مباشرة مع خليقته المختارة، أي الإنسان. (١)

لقد علّم موسى والأنبياء وجميع الآخرين، الذين أظهر الله لهم مشيئته، الشعب شفهيًا، لكنهم رأوا أيضًا أنّ من المفيد أن يدوّنوا ما كشفه الله لهم.

إنّ الكُتب التي كُتبت في الأزمنة السابقة للميلاد على يد هؤلاء الرجال المستنيرين بلغت تسعة وأربعين كتابًا، وقد شكّلت العهد القديم. وكلمة «عهد» تعني اتفاقًا. وكانت لغة الأسفار المقدّسة للعهد القديم في الأساس اللغة العبرية، ولكن أيضًا اللغة اليونانية.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد، تُرجمت جميع الكتب العبرية الخاصة

العصور، وكذلك القرارات الموثوقة والمستلهمة من **الرُّوح القدس**، التي اتخذتها أو سوف تتخذها الكنيسة في **المجامع المسكونية والمحلية**.

ومن البديهي أنّ هذا المبدأ لا ينطبق على القرارات الجمعية التي تخالف قرارات أو قوانين ثابتة وغير قابلة للنقض، أقرتها مجامع أرثوذكسية سابقة؛ إذ إنّ صدور قرار بالأكثرية لا يمنحه سلطة إبطال ما هو ثابت ومُلمزم في تقليد الكنيسة.

النص اليوناني الأصلي:

إنّ هذا التقليد المقدس الأرثوذكسي الموثوق والتاريخي لا يمت بصلة إلى التقاليد الدينية الاعتبارية وغير القائمة على أساس، التي يلتقي بها الإنسان في جماعات دينية هرطقية ومنفصلة **عن الأرثوذكسية**، مثل هرطقات المونوفيزيين (أصحاب الطبيعة الواحدة)، والبابويين أو ما يُعرف بالكاثوليك، والبروتستانت.



إبتهاال: لتستقم صلاتي كالبحور أمامك.

مادّة كتابيّة:

المصادر - الترجمة الحرة

(أ) هدفنا هو الخير

«أَطْلُبُوا الْخَيْرَ لَا الشَّرَّ لِكَيْ تَحْيَوْا» (عاموس ٥: ١٤). من أجل حياة مرضية أمام الله، اتبعوا ما هو صالح، وليس ما هو شريع.

(ب) الناموس الإلهي

«سِرَاجٌ لِرَجُلٍ هُوَ نَامُوسُكَ، وَنُورٌ لِسَبِيلِي» (المزمور ١١٨: ١٠٥) إنّ ناموسك الإلهي هو مرشدٌ لمسيرتي ونورٌ لطريقي.

مادّة آباءية:

(ج) لماذا كُتِبَ الكتاب المقدس

النص اليوناني الأصلي:

«لأنّ الهدف واحدٌ للعهد القديم والعهد الجديد... فالكتاب المقدس يدوّن دائماً قصص رجالٍ عظامٍ حقّقوا الفضيلة، لكي تصبح رواية حياتهم مادة تعليمٍ صالحةً للذين يأتون بعدهم. ولهذا السبب لا يقدّم فقط الذين نجحوا في الفضيلة، بل أيضاً الذين سقطوا في الخطيئة، لكي نقتدي بالأولين ونتجنّب الآخرين، وهكذا نتقوّى من الجهتين في الفضيلة والاجتهاد».

النص اليوناني الحديث:

إنّ الهدف مشترك بين العهد القديم والعهد الجديد... فموسى يكتب أعمال البشر الأبرار (القديسين)، لكي ينتفع الناس مستقبلاً من دراستها. لكنّه لا يعرض فقط أناساً أبراراً (قديسين)، بل أيضاً خطاة، لكي نقتدي بالأولين ونتجنّب الآخرين، وبذلك نُقاد من خلال الطريقتين إلى الفضيلة والاهتمام بخلاص نفوسنا.

PG 314-313, 56 القديس يوحنا الذهبي الفم

الميلاد، أمّا الأخيرة ففي القرن الأوّل بعد الميلاد على يد الرسل وتلاميذهم. **وجميع الكتب الستة والسبعين للكتاب المقدس هي كتبٌ موحى بها من الله وحديثة بالثقة. وقد كُتبت بإضاءة الرُّوح القدس**، كما تُرجمت تاريخياً إلى أكثر من ثلاث عشرة لغة قديمة.

هذه المجموعة من الأسفار، المؤلفة من **ستة وسبعين كتاباً**، دُعيت «**قانون الكتاب المقدس**».

إنّ العهد الجديد هو **أكمل** من العهد القديم، من دون أن يفقد العهد القديم قيمته. غير أنّ **ملكوت الله** سوف يفوق كلّاً من العهد القديم والعهد الجديد.

ونحن نعتبر غريبة، ومرفوضة، ومخالفةً لتعليم **آباء الكنيسة القديسين**، كلّ محاولةٍ ترمي إلى استبدال النصّ الأصيل للكتاب المقدس، في العبادة الرُّومانية الأرثوذكسية، أو في التعليم الديني، أو في الدراسات والإحالات اللاهوتية، بالنصّ المترجم الصادر عن جمعية الكتاب المقدس البروتستانتية، أو عن «جمعية الكتاب المقدس اليونانية»، التي درجت في منشوراتها على إهمال أو تهميش النصّ المعتمد **للتُرجمة السبعينية (٧٠)**، أو النصّ اليوناني الأصيل للعهد الجديد.

وفيما يتعلّق بعدد الأسفار المقبولة في الكتاب المقدس، فإنّ البروتستانت الهراطقة واليهود يقبلون فقط الأسفار التسعة والثلاثين للعهد القديم.

أمّا البابويون الهراطقة فيرفضون ثلاثة أسفار من العهد القديم: سفر عزرا الأوّل، وسفري المكابيين الثالث والرابع. ولذلك فهم يقبلون فقط ستة وأربعين سفرًا من العهد القديم.

ويقبل البروتستانت والبابويون أيضاً الأسفار السبعة والعشرين للعهد الجديد. أمّا اليهود، فعلى العكس، فإنّهم يرفضون العهد الجديد ويحتقرونه.

(ب) التقليد المقدس الموحى به من الله

إلى جانب الكتاب المقدس، **تتمسك** الكنيسة الرُّومانية الأرثوذكسية أيضاً **بالتقليد المقدس الأرثوذكسي**. ويندرج هنا التعليم التاريخي **للمسيح وإرشاداته** التي تتعلّق بالكنيسة الرُّومانية الأرثوذكسية وأسرارها ومسيرتها المتواصلة عبر الأجيال. وهذا التعليم العائد **إلى المسيح وإرشاداته** لم تُسجّل بصورة تفصيلية داخل أسفار الكتاب المقدس. ومن الجدير بالذكر أنّ التقليد المقدس، بل والموحى به **من الله** أيضاً، كان موجوداً حتى عند شعب العهد القديم.

ومثال ذلك اسما الساحرين **يُنيس ويمبريس**، اللذين قاوما موسى أمام فرعون، واللذين يذكرهما الرسول بولس، فهما لا يوجدان في أي موضع من العهد القديم. وكذلك النبوءة الخاصة **بالمسيح: «سيدعي ناصريّاً»**، التي يذكرها **الإنجيلي متى**، لا توجد أيضاً في النصّ المكتوب والموحى به **من الله** للعهد القديم. (٢) ومع ذلك، فإنّ التقليد المقدس الأرثوذكسي يتمتّع بنفس مقدار الموثوقية التي للكتاب المقدس.

ويدخل ضمن هذا التقليد المقدس **القديسون والشهداء من جميع**

د) لماذا كُتِبَ الكتاب المقدس

«لأنه يمكن أن نرى هذه الأمور محفوظة بصورة سرّية عند الأنبياء.»
يمكننا أن نكتشف (الأمور المذكورة أعلاه) داخل أسفار الأنبياء.
فكل شيء مكتوب هناك...

النص اليوناني الأصلي:

«لا يوجد شيء غير مكتوب، لا في العهد الجديد ولا في العهد القديم. لكن العهد القديم سبق العهد الجديد، والعهد الجديد فسر العهد القديم. وكثيراً ما قلّت إنّ العهدين يشبهان جارتين وأختين تخدمان سيّداً واحداً. فالربّ كان يُشّرّ به عند الأنبياء، وفي العهد الجديد أعلن بوصفه المسيح. إنّ الأمور الجديدة ليست جديدة، لأنّ القديمة سبقتها. ولم تُنحَ الأمور القديمة، بل فُسّرت في العهد الجديد.»

القديس يوحنا الذهبي الفم

النص اليوناني الحديث:

في العهد القديم والعهد الجديد. لقد سبق العهد القديم العهد الجديد، والعهد الجديد فسر العهد القديم. وكثيراً ما قال إنّ العهدين يشبهان خادميتين وأختين تخدمان سيّداً واحداً. فالربّ يُنبأ به عند الأنبياء بصفته إلهًا، وفي العهد الجديد يُعلن أنّه المسيح. إنّ الأمور الجديدة ليست جديدة لأنّ القديمة سبقتها. والأمور القديمة لم تفقد قيمتها، بل جرى شرحها وتفسيرها في العهد الجديد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ه) العهد القديم، العهد الجديد، وملوكوت الله

النص اليوناني الأصلي:

«وإنّ كان العهد القديم أقلّ كمّالاً من العهد الجديد، فهذا لا يعني أبداً أنّه شرير. لأنّ العهد الجديد نفسه سيختبر الأمر عينه أيضاً. فمعرفة العهد الجديد، إذا ما قورنت بالمعرفة الآتية في المستقبل، تُعبّر معرفة جزئية وغير كاملة، وسوف تزول عندما يأتي ذلك الكمال. لأنّه، كما يقول الكتاب: «وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ الْكَامِلُ فَحِينَئِذٍ يُبْطَلُ مَا هُوَ بَعْضٌ.» (١ كو ١٣: ١٠). وهذا ما حدث للعهد القديم أمام العهد الجديد. لكننا لا نطعن في العهد القديم بسبب ذلك، رغم أنّه أيضاً سيتراجع عندما نبلغ إلى الملكوت.»

PG 57,244 القديس يوحنا الذهبي الفم

النص اليوناني الحديث:

رغم أنّ العهد القديم أقلّ كمّالاً من العهد الجديد، لا يجوز لأحد أن يعتبره مرفوضاً أو بلا قيمة. وكذلك العهد الجديد نفسه، إذا ما قورن بملء المجد الإلهي الآتي في الملكوت وفي المجيء الثاني، سيظهر أنّه ما زال جزئياً وغير كامل. فعندما يأتي الكمال الكامل، سوف يتراجع ما هو أدنى منه. وكما فسر العهد الجديد العهد القديم وتجاوزه نسبياً، هكذا أيضاً ستدخل الخليفة كلّها إلى ملء ملكوت الله. لكن هذا لا يعني إطلاقاً التقليل من شأن العهد الجديد أو الإساءة إليه، لأنّه هو أيضاً مرحلة إلهية تقود الإنسان إلى الملكوت الأبدي.

و) المُشَرِّعُ واحدٌ للعهد القديم والعهد الجديد

النص اليوناني الأصلي:

فنحن نؤمن بأنّ واضع الشريعة في كلا العهدين هو واحدٌ بعينه، ذاك الذي دَبَّرَ كلَّ شيءٍ بحسب ما ينبغي، ووفقاً بين اختلاف الأزمنة واختلاف كلّ شريعة بحسب مقتضى الحال. لذلك فوصايا العهد القديم ليست قاسيةً ووحشيةً، ولا وصايا العهد الجديد ثقيلةً ومرهقة، بل إنّ جميعها صادرٌ عن عنايةٍ واحدةٍ واهتمامٍ إلهيٍّ واحد.

PG 57,247 القديس يوحنا الذهبي الفم

النص اليوناني الحديث:

إنّ الأرثوذكسيين يعترفون بأنّ المُشَرِّعَ نفسه هو واضع العهد القديم والعهد الجديد. فهو الذي اعتنى بكلّ شيءٍ لأجل منفعتنا الروحية، وكيفَ التشريع بحسب كلّ زمنٍ وعصر. ولهذا يمكننا أن نقول إنّ وصايا العهد القديم ليست صارمةً بلا رحمة، كما أنّ وصايا العهد الجديد ليست ثقيلةً ولا عسيرة الاحتمال. فكلّ شيءٍ قد كُتب ووضع من قِبَل المُشَرِّعِ الإلهي نفسه، وبالعناية عينها والاهتمام نفسه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تدريب روحي

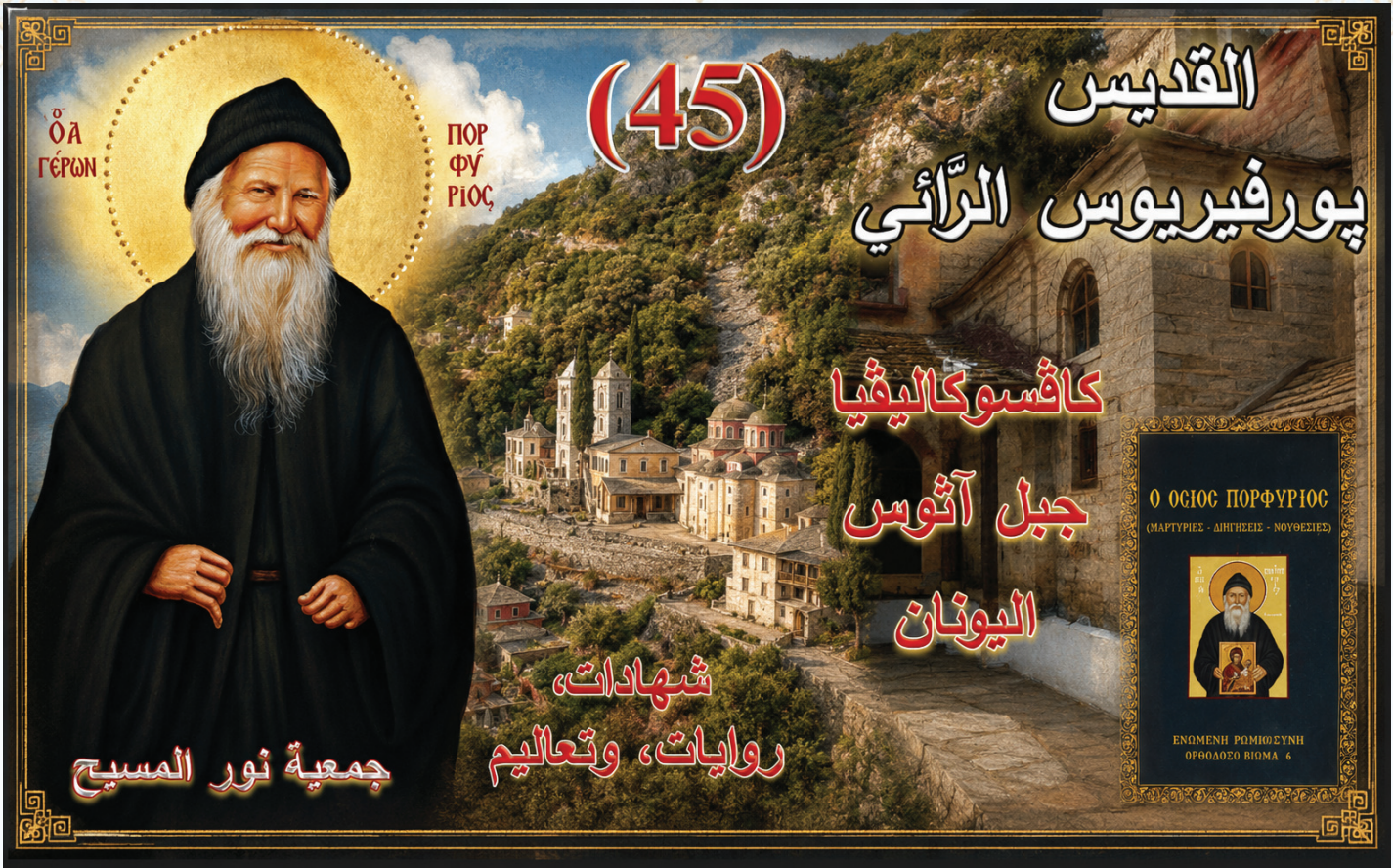
لِنَسْعَ إلى معرفة أسفار العهد القديم وحفظها، لأنها تمهيدٌ لإعلان المسيح في العهد الجديد.

الترجمة السبعينية:

تُرجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد، في عهد الملك بطليموس الثاني فيلادلفيوس، على يد اثنين وسبعين حبراً يهودياً كانوا يُتقنون اللغتين العبرية واليونانية، بواقع ستة أحبارٍ من كلّ سبطٍ من أسباط إسرائيل الاثني عشر. وقد جرت الترجمة في جزيرة فاروس قرب الإسكندرية، في مكانٍ هادئٍ ومنعزل، ولذلك سُمّيت هذه الترجمة بـ«الترجمة السبعينية» أو ترجمة «السبعين» (O). وتُعتبر الترجمة السبعينية النصّ المعتمد في الكنيسة الرُومِيَّة الأرثوذكسية، لأنّ الرسل والآباء القديسين اقتبسوا منها في كتاباتهم وتعليمهم الليتورجي واللاهوتي.

(١) ملحوظة لاهوتية: عندما نقول إنّ الله صار إنساناً، فإن الكنيسة الرُومِيَّة الأرثوذكسية تعلّم أنّ الكلمة الإلهي اتخذ طبيعتنا البشرية كاملة، ما خلا الخطيئة (راجع: عب ٤: ١٥).

(٢) ملحوظة: يكشف التقليد المقدّس أنّ الكنيسة تسلّمت، إلى جانب الأسفار المقدّسة، حقائق ومعلوماتٍ رسولية لم تُدوّن كلّها في نصوص الكتاب المقدّس، لكنها بقيت محفوظة في حياة الكنيسة وتعليمها. ومن أمثلة ذلك: اسم الساحرين يثيس ويمبريس اللذين قاوما موسى أمام فرعون (راجع ٢ تيموثاوس ٣: ٨)، وكذلك النبوءة التي يوردها الإنجيلي متى: «سيدعي ناصرياً» (متى ٢: ٢٣)، وهي لا تردّ بهذه الصيغة في أسفار العهد القديم المكتوبة. ويؤكد الرسول بولس أيضاً هذا المبدأ بقوله: «وَأَمَّا الْأُمُورُ الْبَاقِيَّةُ فَعِنْدَمَا أَجِيءُ أُرَبِّئُهَا» (١ كورنثوس ١١: ٣٤)، في إشارة إلى أنّ الرسل سلّموا للكنيسة أموراً أخرى شفوية إلى جانب ما كُتب. يتبع في العدد القادم



الفصل الرابع والعشرون:

بَرَكَهُ الْقَدِّيسِ قَبْلَ إِجْرَاءِ الْقُرْعَةِ: عندما بلغ ابني ديميتريوس (ديونيسيوس) السادسة والنصف من عمره، أصرَّت أختي ماريانا، التي كانت عزابته في المعمودية، على تسجيله في المرحلة الابتدائية في «كلية أثينا» (في مبناها الجديد آنذاك بمنطقة كانتزا). فتوجَّهت وقَدَّمت طلب الانتساب، ثم عادت مُحْبطة وهي تخبرنا بأن عدد الطلبات بلغ (٥٦٠) **طَلَبًا**، في حين لن يُقبل سوى (٥٦) **تلميذًا** بعد إجراء القرعة، أي بمعدل طفل واحد من كل عشرة.

أما خالته الكبرى ماريا، أخت والدتي، وكانت أول من تعرَّف إلى **القديس** في منطقة ميليسي، فقد ذهبت إليه من دون أن تخبر أحدًا، لتطلب بركته من أجل الطفل. وما إن دخلت عليه حتى استقبلها بابتسامة عريضة، ولوَّح بيده وهو يضحك قائلاً: «اذهي... اذهبي... لقد جئت من أجل الطفل... اذهبي... اذهبي...». خرجت وهي مملوءة بالسلاام، وآمنا جميعًا أن الأمر قد صار بين **يدي الله**.

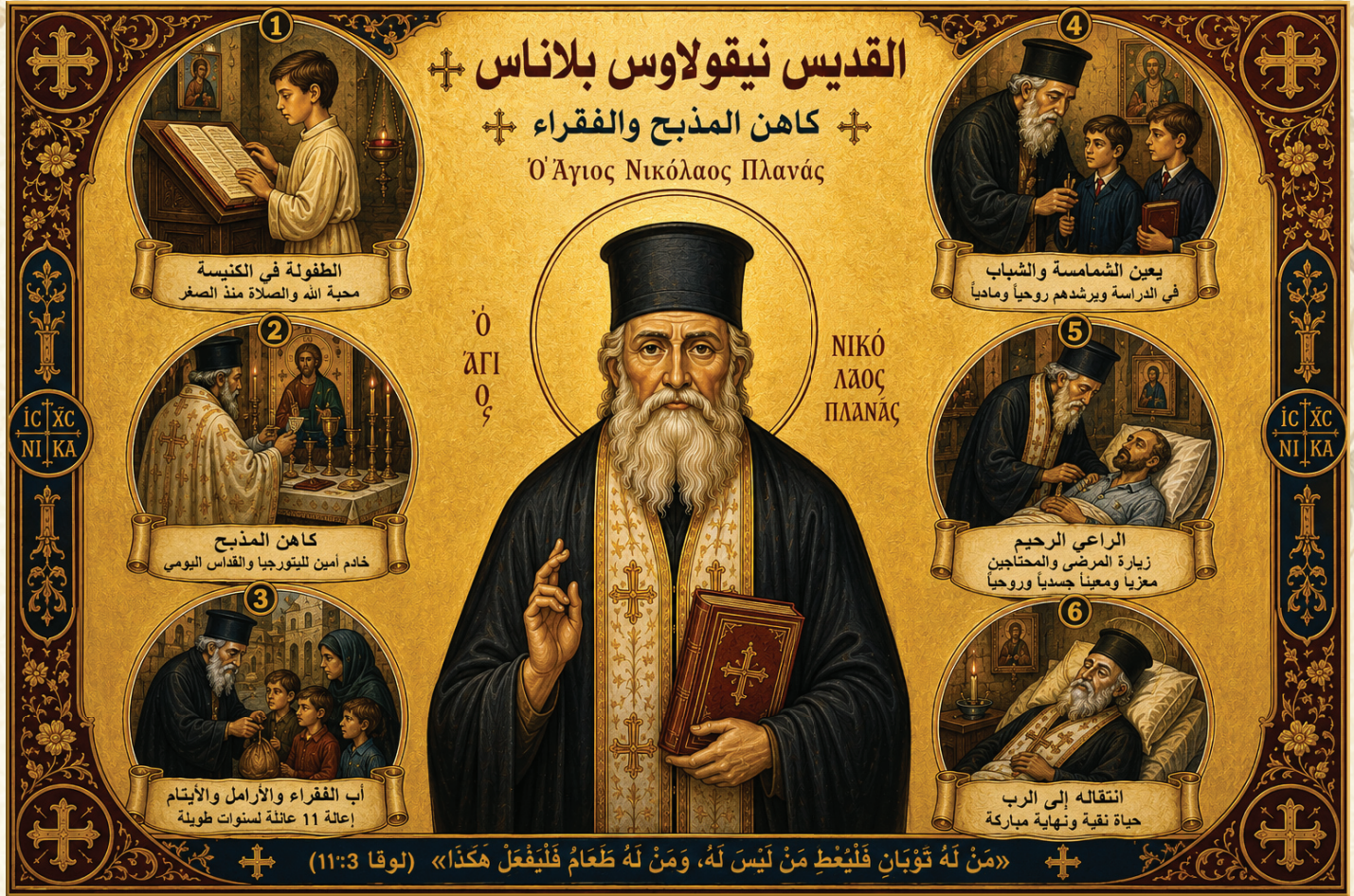
وجاء يوم القرعة، فامتأ المدرِّج بالوالدين والأطفال. وكان أحد الوالدين يصعد إلى صندوق القرعة، فيفتح بابه، ويسحب ورقة مطوية تحمل رقم أحد الأطفال، ثم يسلمها إلى اللجنة التي تعلن اسم المقبول. وكان **ابني يعرف القديس** منذ أن كان في الرابعة من عمره، إذ سبق **للقديس** أن بارك رأسه الصغير وصلى من أجله بجملة. لذلك قلت له قبل بدء القرعة: «صلِّ طوال الوقت، وليكن القديس معك».

وبعد سحب الورقة الثانية عشرة، حدث أمر لم يكن في الحسبان. فقد نهض ابني فجأة من مكانه، واندفع مسرعًا بين صفوف الحاضرين، حتى بلغ صندوق القرعة. وقف على أطراف أصابع قدميه، وفتح الباب الصغير، وسحب ورقة بنفسه. كان رقمه (١٨٣).

وحين فتح المسؤول الورقة وبدأ يقول: «مئة وثمانون...» وجدت نفسي أقف من مقعدي وأكمل بصوت مرتفع: «... وثلاثة! ديميتريوس...». ساد الصمت للحظة، ثم قال مدير المدرسة بدهشة: «ما حدث اليوم لا يُصدَّق! لم يحدث شيء كهذا في تاريخ مدرستنا». ومنذ ذلك اليوم غيَّرت المدرسة أسلوبها، وأصبح الأطفال هم الذين يسحبون القرعة بأنفسهم. عندها تذكرنا ضحكة **القديس** عندما زارته خالتي، وضحكنا جميعًا، مدركين أن ما جرى لم يكن وليد المصادفة، بل ثمرة بركته وصلاته.

محبة القديس للضالين: كان يحدث أحيانًا أن يطرق باب بيتنا بعض أفراد «شهود يهوه»، وكانا غالبًا شابًا وشابة يحملان الكتاب المقدس. وكانت والدتي امرأة غيرة جدًّا على **الإيمان الرُّومي الأرثوذكسي**، حتى إنها كانت تستقبلهم بلهجة حادة، فتقول لهم: «لماذا جئتم إلى بيتي؟ ماذا تريدون مني؟ اخرجوا من هنا... اذهبوا... أنتم أعداء إيماننا!». أما والدي فكان أكثر هدوءًا، وكان يحاول دائمًا تهدئتها.

وذات مرة أخبرت والدتي **القديس** بما يحدث. وبعد أن أصغى إليها، قال بأسى عميق: «آه... يا للمساكين هؤلاء الشباب! إنهم إخوتنا الضالون. لقد خُدعوا وأضلُّوا، وكَم أحن من أجلهم! إذا عادوا إليك، فقولي لهم: هل تقبلون ألا تتكلموا أنتم، بل تستمعوا إليّ؟ هل تسمحون لي أن أحدث وأنتم تنصتون؟ فإن رفضوا وانصرفوا، فقولي لهم الأمر نفسه إن عادوا مرَّة أخرى. فإذا رفضوا أيضًا في المرة الثانية، فاتركهم ولا تشغلي بالك بهم بعد ذلك. أعطي كلَّ واحدٍ منهم فرصتين، ثم صلِّي إلى المسيح لكي ينير إخوتنا الضالين ويقودهم إلى الحق. إنهم ينظرون إلينا، لكنهم لا يملكون البصيرة التي تمكِّنهم من رؤية الخطأ الذي وقعوا فيه». ثم ختم كلامه بهذه العبارة المؤثرة: «اعلمي يا كليونيكى أن المسيح يحب الخطاة، بل يحبهم حبًّا عظيمًا إذا تابوا. إنه يحب الخاطئ، لكنه لا يحب الخطية».



الطفل نيقولاوس بعالم آخر من القوى الإلهية والكائنات الملائكية.

وكان جدّه الكاهن جورجيس ميليسورغوس مُعلّمه ومرشده الرُّوحي، فعلى يديه تعرّف إلى النصوص الليتورجية للكنيسة، والألحان الكنسية، وقراءة سفر المزامير المقدّس. وكان يرافقه أيضاً أثناء إقامة القدّاس الإلهي، خادماً له في الهيكل المقدّس، وفي الوقت نفسه كان يتقبّل فيض الأسرار الروحية المنبثقة من العبادة الإلهية. وكانت قناة التواصل مع القوى الإلهية في أعماق نفس نيقولاوس قد انفتحت بالفعل. غير أنّ الحياة ليست دائماً سعيدة، بل تحمل معها أيضاً تجارب ومحنًا. إلّا أنّ هذه التجارب نفسها تُظهر قوّة الشخصية الروحية، وتكشف عن مدى العظمة الكامنة في النفس البشرية، تلك العظمة التي يخترها كلّ واحدٍ منّا في أعماق عالمه الداخلي. وكانت إحدى هذه التجارب مرتبطة بوفاة والده، حين بلغ نيقولاوس الرابعة عشرة من عمره. عندئذٍ غادرت والدته جزيرة ناكسوس، ترافقها أختها، وجاءتا إلى أثينا، مصطحبتين معهما نيقولاوس إلى العاصمة.

وبعد ذلك قُسمت ثروة العائلة القيّمة بين الإخوة، فجعل نيقولاوس حصته الخاصة كفالةً لأحد الفقراء، ضماناً لحصوله على المال الذي احتاج إليه. غير أنّ هذا الأخير قابل إحسانه بالحدود ونكران الجميل، فلم يُبد أيّ تقديرٍ لموقفه النبيل، ولم يُعِد المال الذي كان القديس قد تكفّل به. غير أنّ نيقولاوس لم يُبالِ بهذا الأمر، بل ظلّ فقيراً مدى حياته، إذ كانت كنوزُه روحيةً بامتياز، مرسله من الله، ولم يشعر يوماً بالحاجة إلى مُتّع العالم المادية. كما أنّه لم يكن يطلب العدالة البشرية، بل كان يتطلّع إلى العدالة الإلهية التي تعمل وفق موازين أسمى ومستويات أرفع.

وُلد نيقولاوس بلاناس سنة ١٨٥١ في جزيرة ناكسوس. وكان ينحدر من أسرةٍ تقيةٍ وذات سيرةٍ صالحة. أمّا والداه، الكابتن يانيس وأوغسطينا، فكانا شخصين تقيين وطيبين القلب، يعيشان في جوٍّ من مخافة الله والتقوى، وكان والدا نيقولاوس يمتلكان سفينةً تجاريةً صغيرة، كانت تقوم برحلاتٍ منتظمة من وإلى ناكسوس وسميرنا والقسطنطينية، وحتى الإسكندرية في مصر. وفي إحدى أملاكهم، كان والدا نيقولاوس، لارتباطهما العميق واختبارهما الحيّ للأمور الإلهية، قد شيّدا مُصلّى صغيراً مكرّساً للقديس نيقولاوس. وقد كُتب لهذا المصلّى أن يصبح مركز جذب الطفل نيقولاوس منذ سنوات طفولته المبكرة. وكما تشهد الروايات، كان يخصّص معظم ساعات يومه ليوحد في هذا المكان المقدّس، إمّا مُرتلاً الألحان الكنسية التي كان يتعلّمها تدريجياً مع مرور الزمن، وإمّا مُرتدياً ملاءً على هيئة لباسٍ كهنوتيّ طقسّي، مُقلّداً الكهنة الذين يرتدون الأردية والحلل الليتورجية المقدسة. لقد كانت تراتيله الخاشعة تستحيل ألا تسترعي انتباه المارّين وإعجابهم، حتى إنهم كانوا يتساءلون: كيف يمكن لطفلٍ صغير أن يكون موهوباً بمثل هذه المواهب؟ ومنذ خطواته الأولى، كان انجذابه إلى حياة الكنيسة ظاهراً للعيان. وقد اقترن هذا الانجذاب باقتنائه مواهب إلهية، ومنها موهبة الاستبصار التي نالها في وقتٍ مبكر، كعلامة على القوى العجائبية الإلهية التي كانت قد بدأت تستقرّ في كيانه، مقتنياً إيّاها بنعمة الله.

لقد «عين في رؤيا» غرق السفينة الصغيرة العائدة لوالديه خارج القسطنطينية قبل أن يحدث ذلك، وأخبر والديه بالأمر، ليتأكد بعد ذلك بقليل بصورةٍ مأساوية. ثم تلت ذلك تنبؤات ورؤى أخرى أخذت تتعاظم مع مرور الزمن، مشيرةً إلى الصلة العميقة التي كانت تربط

وسكنت العائلة في المنطقة الواقعة بين **كنيسة القديس يوحنا** في بلاكا وكنيسة القديس بندلايمون في إليسوس، وهي منطقة كان يقطنها أيضاً كثيرٌ من أبناء ناكسوس، رفاقه ومواطنيه من الجزيرة نفسها. وفي سنِّ **السابعة عشرة** عقد زواجه، وذلك بعد ضغوطٍ شديدة مارستها عليه والدته، من **إيليني بروفيلينغيو** المنحدرة من جزيرة كيثيرا. ورزق من هذا الزواج بابن واحد دُعي **يوحنا**. غير أنَّ وفاة زوجته أعقبت ذلك، فكان هذا الحدث دافعاً لأن يُضرم من جديد في نفسه الغيرة المقدسة التي كانت تسكنه منذ القدم.

وفي **الثامن والعشرين من تموز سنة ١٨٧٩** سيم شماساً في كنيسة تجلي المخلص المقدسة في حي بلاكا. وفي **الثاني من آذار سنة ١٨٨٥** نال **درجة الكهنوت**، وأقيم في **كنيسة القديس بندلايمون المقدسة** في إليسوس، فكرّس نفسه للكراسة **بكلمة الله** بكلِّ وعي وإخلاصٍ وتفانٍ، كما خدم أيضاً في رعية القديس يوحنا الواقعة على طريق فولياغمينيس، ناشراً التعليم الإنجيلي بروحٍ رسولية متقدمة.

وكان **القديس نيقولاوس** خادماً أميناً **لعمل الله وكلمته**، وقد تجلّى في حياته العملية ككاهنٍ مجتهدٍ لا يعرف الكلل، مكرّساً ذاته لخدمة الرومية الأرثوذكسية، وامتقداً **بمحبة الإله الثالث القدوس** وعبادته.

لقد اجتمعت في **القديس نيقولاوس** فضائل كثيرة: تقوى عميقة، وورع صادق، وصلاح لا يعرف حدوداً، وزهد نادر في المال، وبساطة أسرة، نقى القلب، وبتشاحاً بتواضع عميق. وكان يُظهر صبراً عظيماً في التجارب والحن، وهيبة كهنوتية مُشعّة. وكانت هذه الصفات، التي تُعدّ مواهبً ثمينة في حياة الكاهن، تُتوجّها مهابةً روحيةً فريدة، و**محبة متقدمة للعبادة الإلهية**. وسائر الفضائل التي شكّلت شخصيته الروحية **وزيّنتها**، حتى استحقّق أن يُعدّ في ضمير الشعب واحداً من أعظم الغيورين على الإيمان الأرثوذكسي.

لقد كان **القديس نيقولاوس** ينظر إلى المال على أنّه وسيلة لخدمة الخير، لا غاية يُسعى إليها. ولذلك كان كلُّ ما يقدمه له المؤمنون من عطايا وتبرّعات يُسرّع إلى توزيعه على المحتاجين، محوِّلاً محبة الناس له **إلى بركة للفقراء**. وهكذا كان يحقق عملياً **وصية المسيح: «مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ، وَمَنْ لَهُ طَعَامٌ فَلْيَفْعَلْ هَكَذَا» (لوقا ٣: ١١)**، جامعاً بين الخدمة الروحية والعمل الاجتماعي في آنٍ واحد.

فقد تكفّل **القديس نيقولاوس** بإعالة **إحدى عشرة عائلة من الأرمال والأيتام**، فكان يخصّص لهم معونةً ماليةً منتظمة لسنوات عديدة، إلى أن يبلغ أبناءهم سنَّ **الرابعة عشرة**. ولم تقتصر محبته على ذلك، بل كان يشجّع الشمامسة الشبان ويعينهم في متابعة دراستهم، كما كان ملجأً لكل محتاج، يسانده مادياً ويعضده روحياً بحسب حاجته. وهكذا برز **نيقولاوس بلاناس** خادماً لا يعرف الكلل، وأميناً **على كلمة الله**، حافظاً لها ومجسّداً لها في حياته اليومية.

لقد ظلَّ **القديس نيقولاوس**، طوال أكثر من **خمسين عاماً**، يقف يومياً أمام **المذبح المقدس**، محتفظاً ببساطته وتفتّنه ووداعته، بحيث انعكست هذه الفضائل على كلّ تفاصيل حياته وتصرفاته.

ولم يكن ما يميّزه تحصيلٌ علمي رسمي، ولا ألقاب أكاديمية، ولا شهرة

في مدارس وجامعات عصره؛ لكنه كان يقدر المعرفة الأصيلة ويطلب جوهرها، أي **الحكمة الآتية من الله وتعليمه المقدس**. ويبدو، بحسب ما يذكره الكاتب، أنّه لم يتلقَّ تعليمًا مدرسيًا نظاميًا يُذكر، وربما لم يلتحق بأيِّ صفٍّ دراسي أصلاً. غير أنَّ **القديس نيقولاوس** كان حائزاً **حكمة الله** حيازةً كاملة، لا من خلال الدراسة النظرية، بل عبر خبرة روحية مُعاشة وإدراكٍ واعٍ لما **يعلنه الله** للنفس. وكانت هذه الحكمة شهادةً حيّة على أصالة علاقتّه **بالله** وصدقها، وعلى **نقاوة اتصاله بالعالَم الإلهي**. أمّا كنزُه الذي لا ينفد وثروته التي لا تُستنفد، والذي ظلَّ محور وجوده ومركز حياته حتى النفس الأخير، فكان **الحياة الليتورجية للكنيسة**، التي عاشها بكلِّ كيانه وجعلها قلب مسيرته الروحية.

لقد كان **القديس نيقولاوس** إنسان **صلاةٍ وصومٍ وتأملٍ**، وكانت حياته الروحية تقوم على جهادٍ داخلي دائم. وكان يرى في الصوم وسيلةً لتنقية النفس وإعدادها **للخدمة الإلهية**، لا مجرد ممارسة خارجية أو تقليدٍ متوارث. لذلك انحصرت حياته كلّها في خدمةٍ لا تنقطع **للإيمان والمحبة**. وكان، إلى جانب ذلك، بسيطاً في مظهره، حكيماً في فكره، موفقاً في أجوبته، يتكلّم بكلامٍ غنيٍّ بالمعنى، يفيض بالبساطة الممزوجة **بالوقار المقدس**، حتى بدت في شخصه البساطة وقد **اتّحدت بالقداسة**.

لقد **جَدَّ الله القديس نيقولاوس**، ووهبه الموهبة النادرة **لصنع العجائب**. وتُعدّ معجزاته، بحسب الشهادات المحفوظة، كثيرة لا تُحصى. فكان يشفي المرضى، ويطرّد الشياطين من الذين كانوا واقعين تحت سلطانها، ويُنبئ بأُمورٍ مستقبلية، ويحلّ المشكلات الصعبة، ويُسدي المشورة السديدة لمن يلجأ إليه. وكان **نيقولاوس بلاناس** يحفظ جميع الأصوام الكنسية بدقة، ممتنعاً حتى عن الزيت خلالها. كما كان يبدأ صوم عيد الصليب الكريم من الأوّل من أيلول ويستمر فيه حتى الرابع عشر من الشهر نفسه. وكذلك، استعداداً لعيد رئيسي الملائكة جبرائيل وميخائيل، كان يصوم من الأوّل وحتى الثامن من شهر تشرين الثاني.

ولكن، إذ إنّ جميع البشر يخضعون لناموس الفساد الجسدي والموت الطبيعي بما يحمله من نتائج لا مفرّ منها، فقد حان الوقت أيضاً لهذه الشخصية الموقرة أن تغادر هذا العالم الأرضي، وتعبّر إلى الحياة الأخرى، مرتقيةً إلى المساكن السماوية، و**مقدمة نحو الله** الذي استمدّت منه طوال حياتها **القوة والنعمة**.

وفي **الثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٣٢**، وكان ذلك يوم أحد، أقام **نيقولاوس بلاناس القداس الإلهي** للمرة الأخيرة على المذبح الأرضي المقدس. وبعد انتهاء القداس الإلهي فقد وعيه داخل الكنيسة. فسارع المؤمنون وأفراد عائلته إلى العناية به والاهتمام بحالته. غير أنَّ مسيرته كانت قد بلغت نهايتها المرسومة، رغم كلّ ما أحيط به من عناية واهتمام. وبعد أيام قليلة، وتحديدًا **مساء الثاني من آذار سنة ١٩٣٢**، وبينما كان طريح الفراش يرسم إشارة الصليب ويتمم بالصلوات، هتف فجأةً قائلاً: **«قد أكملتُ مسيرتي!»** ثم قال: **«المجد لك يا الله!»** **«لتبارككم النعمة الإلهية»**، ثم أسلم الروح وغادر هذا العالم الباطل. وفي اليوم التالي، وُضع جسده المقدس بكلِّ إكرام وتقوى في **كنيسة القديس يوحنا** الواقعة على طريق فولياغمينيس، حيث كان يخدم ككاهن. وبقي

ثلاثة أيام معروضاً لإكرام المؤمنين وتقبيلهم. وكانت مظاهر مشاركة الشعب غير مسبقة؛ فقد أصبح جسده الطاهر موضع إكرام وتبجيل، وتوافد **آلاف** المؤمنين من مختلف أنحاء أتيكا ليودّعوا **هذا القديس المعاصر**. لقد مضى الزمن، أما ذكره فبقية حيّة لا تزول. وفي **التاسع والعشرين من آب سنة ١٩٩٢**، وُضعت **ذخائر القديس نيقولاوس بلاناس العجائبيّة** في تابوت فضّي، لا يزال محفوظاً إلى اليوم في الجناح الأيمن من الكنيسة المذكورة آنفاً. **أما الكنيسة فقد أعلنت نيقولاوس بلاناس قديساً بصورة رسمية خلال الدورة المجمعية الخامسة والثلاثين بعد المئة (١٩٩١-١٩٩٢)**، وذلك بناءً على اقتراح متروبوليت باتراس نيقوديموس. وهكذا ترسّخ اليقين بأنّ القداسة ليست أمراً يخصّ الأزمنة الغابرة وحدها، بل إنّ نماذجها الحيّة لا تزال قائمة في كلّ عصر، لأنّ النفوس الطاهرة التي تُحسّد الحياة المسيحيّة الأصيلة لم تتوقّف يوماً عن الظهور في الكنيسة.

يُعبد **للقديس نيقولاوس بلاناس في الثاني من آذار**، وهو اليوم الذي تُكرّم فيه ذكره بمناسبة انتقاله **إلى الرّب**. كما يُحتفل به أيضاً في الأحد الأوّل من شهر أيلول، ضمن «مجمع قديسي باروناكسيا الخمسة»، وهو العيد الذي أقرّ واعتمد في السنوات الأخيرة نسبياً.

عن حياته الكهنوتية العجائبيّة

قال مرّة وهو ينصح إحدى بناته الرّوحانيّات: «يا ابنتي، بالصبر وحده اجتزت كلّ تلك الإهانات والعثرات التي كانت تعترضني». وكان يشرح لإحدى بناته الرّوحانيّات لماذا لا ينبغي للإنسان أن يغضب، فيقول: «أوتظنّين أنّي لا أعرف كيف أتكلّم؟ أعرف، ولكيّ أفكر في النتيجة، ولذلك أصمت».

وكان **الأب نيقولاوس بلاناس يقيم القدّاس الإلهي يومياً** دون انقطاع طوال **نصف قرن تقريباً**. وخلال هذه المدة كان يحدث أحياناً ألا يتوقّر لديه قربان للقدّاس، لكنّه كان يجد دائماً وسيلة لتأمينه، إمّا من المؤمنين وإمّا من الأفران المجاورة.

وفي أحد الأيام، تقدّم موعد إقامة صلاة السّحر كثيرًا، فلم يُعثر على قربان في أيّ مكان. فأرسل من يفتّش في الأفران، ولدى ربّات البيوت اللواتي اعتدن الاحتفاظ بالقربان، كما بحثوا في خزائن الهيكل، لعلّ أحد الكهنة كان قد ترك قرباناً هناك، لكن جميع المحاولات باءت بالفشل. فامتأّل قلب القديس حزناً، حتى ذرف الدموع.

وفجأةً رآه الحاضرون يخرج من الباب الملوكي حاملاً **قرباناً طازجاً جدّاً**. لقد وجده **فوق المائدة المقدّسة!**

فقال متأثراً وفرحاً: «انظروا يا أولادي، آية آية صنعها الله لي!» وكان يسمّي جميع المعجزات «آيات»، ويعدها أمراً طبيعياً بسبب إيمانه العميق. وكما نقرأ في السنكسارات عن نُسّاكٍ كانت تخدمهم **ملائكة الرّب**، كذلك كان من الطبيعي أن يخدم ملاكاً من **الرّب الأب نيقولاوس**، ذلك «الناسك الحقيقي الذي عاش داخل العالم».

وكان كثيرٌ من أبناء رعيّته، ولا سيّما الأطفال، يرونه أثناء القدّاس

مرتفعاً عن الأرض. وتروي امرأة فاضلة: «كانت شهرة الأب نيقولاوس قد انتشرت في كلّ أتيكا. وفي إحدى مرّات عيد الميلاد ذهبْتُ مع أحفادي لأتناول من يديه المباركتين... وعندما ظهر من الباب الملوكي حاملاً الكأس المقدّسة، صاح حفيدي: جدّي، **الكاهن يمشي في الهواء!** فقلت له: اسكت! كيف يمشي في الهواء؟ فصرخ طفل آخر: **وأنا أيضاً أراه، إنّهُ لا يلامس الأرض!**» وتضيف أنّها منذ ذلك اليوم كانت تأتي باستمرار إلى الكنيسة، وكانت تسمع الأطفال مراراً يصرخون: «**الكاهن يمشي في الهواء!**»، وفي عيد الميلاد سنة ١٩٢٠، بينما كان القديس يقيم القدّاس في كنيسة القديس يوحنا بطريق فولياغمينيس، ناول طفلاً رضيعاً. وبعد أن حملته فتاة تُدعى يوليا، نظرت إلى الكاهن وكادت تُسقط الطفل من يديها. ولما سُئلت عن السبب قالت: «**أرى الكاهن واقفاً فوق سحابة!**»

وفي مناسبة أخرى، بينما كان يخدم في كنيسة النبي أليشع، خرج طفلاً **في الثامنة من عمره** من الهيكل وقال لأُمّه: «يا أُمّي، **الأب نيقولاوس مرتفع عن الأرض!**» وأشار بيده إلى ارتفاع يقارب **نصف ذراع**. كما التقى صبياناً بالقديس في الطريق، فقال أحدهما، وكان فتى بسيطاً وتقياً: «**انظر! الكاهن لا يمشي على الأرض!**» فكان هذا الفتى يراه مرتفعاً نحو **ثلاثين سنتيمتراً** عن الأرض، بينما لم يستطع رفيقه أن يرى شيئاً من ذلك.

وكان أوّل من دوّن شهادتٍ مكتوبة **عن قدّاسته** الأديب الكبير ألكسندروس باباديامانديس، الذي كان مرثلاً لديه في كنيسة القديس أليشع قرب موناستييراكي في أتيكا. وقد استطاع أن ينفذ إلى عمق هذه النفس المقدّسة، وأن يكتشف مواهبها الكثيرة المختبئة وراء ستار البساطة والتواضع. ويصفه باباديامانديس بقوله: «أعرف كاهناً في أتيكا، هو أكثر الكهنة تواضعاً وأكثر الناس بساطة. إن أعطيته درهماً أو نصف درهم أو حتى قطعة نقد صغيرة لقاء أي خدمة كنسيّة أخذها، وإن لم تعطه شيئاً لم يطلب شيئاً... وكل ورقة تذكّار يسلمها له أحد يظلّ يحتفظ بها ويذكر أسماء الراقيدين لسنوات طويلة. وفي كلّ **تقدمة كان يذكر ألفين أو ثلاثة آلاف اسم دون أن يتذمّر**. إنّهُ محبوب، بسيط، فاضل، ومستحقّ للطوبى الأولى التي نطق بها المخلص». وفي ختام النصّ يكتب **الأب فيلوثاوس زيرفاكوس**: «فلنقتد نحن أيضاً، أيّها الأحباء، بتواضع القديس **الأب نيقولاوس**، لكي **ينظر إلينا الرّب ويرفعنا**. ولنقتد بدواعته لكي يستريح **روح الرّب في قلوبنا**، وبصبره لكي نقتني نفوسنا بالصبر، فنرث **ملكوت الله السماوي الأبدي... آمين**».

طروبارية القديس نيقولاوس بلاناس (باللحن الأوّل):
بعد أن نجوت من شرك الضلال، أيّها الكاهن الموقر، سرّت بلا انحراف طوال حياتك، يا أبانا نيقولاوس بلاناس الجدير بالترنيم. وقد نلت مواهب سماويّة، وداومت على السهر والصوم، وخدمت الرّب بإخلاصٍ وقداسة. فابتهل إليه بحرارة، أيّها الكاهن الناكسوسيّ المبارك، لكي يهبنا نحن أيضاً رحمته الإلهيّة.

ملحوظة: الناكسوسيّ: من جزيرة ناكسوس مسقط رأس القديس.

تفسير رسالة القديس بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (55)

القديس يوحنا الذهبي الفم



د. سعيد حكيم يعقوب

القديس بولس الرسول

وأجد من هذا الظفر الجديد؟ وهذا الأمر ينطبق علينا نحن أيضًا. ففي أيامنا هذه يوجد نبوخذنصر آخر، يشعل أتونًا أشدَّ رعبًا من أتون بابل. وهو يدعونا إلى السجود لصورٍ من نوع آخر. ويقف إلى جانبه المستبدون، والجنود، والموسيقى الآسرة، وكل ما يجذب الأبصار ويأسر القلوب، حتى يُعجب الكثيرون بذلك المشهد الباهر.

إنَّ هذا التمثال ليس سوى الطمع. فهو صنمٌ لا يقلُّ قسوةً عن الحديد، بل يتكوّن من الذهب والفضة والنحاس والحديد، ومن كل ما يفتن الإنسان ويستعبد قلبه، حتى يدفعه إلى السجود له والإعجاب به. ولكن، كما كان في القديم أولئك الفتية الغيورون، يوجد اليوم أيضًا من يرفع صوته بثبات قائلاً: «إِنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَهَتَكَ، وَلَا نَسْجُدُ لِنَمْتَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتُهُ» (دا ٣: ١٨)، أما نحن، فنحتمل أتون الفقر وسائر الأتعاب والمشقات، لكي نحفظ وصايا الله. وأمّا الذين يملكون خيراتٍ وافرة، فكثيرًا ما يسجدون، كما فعل أولئك قديمًا، لتمثال الطمع، فيحترقون بناره. وأمّا الفتية الثلاثة، فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يملكون شيئًا، فقد ازدروا بذلك التمثال، وعاشوا في فقرٍ كامل، لكنهم سلكوا طريقًا أرحب وأوسع من طريق أولئك الذين غرقوا في الترف وسعة العيش. وهكذا، كما حدث قديمًا، فإن الذين ألقوا الفتية الثلاثة في أتون النار هم الذين التهمتهم النار، بينما بقي الفتية، وهم في وسط الأتون، سالمين، تحيط بهم نسمات الندى المنعشة، حتى بدا الأتون بالنسبة إليهم كأنه عين ماء باردة. لقد احترق ذلك المستبد بنار غضبه، حتى استولت الحمية على فكره وأعمت بصيرته. أمّا الفتية الثلاثة، فلم تستطع النار أن تمسَّ حتى أطراف شعورهم.

تأمل أيَّ حزي أصابه أمام هذا الجمع الغفير، إذ احترق ثلاثة فتية أسرى، ورفضوا الخضوع لأمره. وهكذا ظهر بوضوح أنَّه، وإن كان قد استولى على مدينتهم، فلم يكن ذلك بقوته، بل بسبب خطايا أهلها. فإذا كان قد عجز عن أن يغلب ثلاثة فتية مقيدين أُلقي بهم في أتون النار، فكيف كان يستطيع أن ينتصر عليهم في ساحة الحرب لو كانوا أحرارًا، مجتمعين، ومتملئين شجاعة؟ ومن هنا يتبيّن أن خطايا الكثيرين هي التي سلّمت المدينة إلى أيدي أعدائها، لا قوة الأعداء ولا بأسهم.

الإصحاح السادس: «لَا تَكُمُ قَدْ اشْتَرَيْتُمْ بِثَمَنِ» (١ كو ٦: ٢٠).

٤) أتريد أن تتعلّم من موضع آخر كيف يتمجد الله في حياة عبده، وكيف يُعلن مجده من خلال الآيات والعجائب؟ عندما ألقى نبوخذنصر الفتية الثلاثة في أتون النار، ورأى أن النار لم تمسّهم بسوء، هتف قائلاً: «تَبَارَكَ إِلَهُ شَدْرَخَ وَمِيشَخَ وَعَبْدَنَعُو، الَّذِي أَرْسَلَ مَلَائِكَهَ وَأَنْقَذَ عَبِيدَهُ الَّذِينَ أَتَكَلَّوْا عَلَيْهِ وَعَيَّرُوا كَلِمَةَ الْمَلِكِ» (دا ٣: ٢٨).

تأمل كيف أنَّ الملك، بعدما كان يحتقرهم، عاد فأكرمهم. ولم يكن هذا التكریم وليد المعجزة وحدها، بل لأنه رأى في ثباتهم وشجاعتهم ما استحقَّ كلَّ إكرام. وهكذا تمجد الله، لا بإنقاذهم من النار فحسب، بل أيضًا بإيمانهم الراسخ وإرادتهم التي لم تتزعزع.

فلو تأمل أحدٌ في الأمرين معًا، أي في المعجزة الإلهية وفي ثبات الفتية، لأدرك أنه لا يمكن الفصل بينهما؛ لأنَّ احتقار النار، والدخول إلى الأتون بإيمان لا يتزعزع، ليس بأقلَّ عجبًا من الخروج منه سالمين. وحققًا، كيف لا يكون هذا أمرًا يدعو إلى الدهشة؟ فملكُ العالم، الذي كان يملك جيوشًا جرارة، وقادة عسكريين، وولاةً وحكامًا، ويفرض سلطانه على مساحات شاسعة من البرّ والبحر، وجد نفسه عاجزًا أمام ثلاثة فتية مقيدين ومُحتقرًا جدًا. لقد غلب المقيدون مَنْ قَيَّدَهم، وانتصر الأسرى على كل تلك القوة العسكرية الهائلة. فمع أن أنصار الملك امتلكوا كل أسباب القوة، بل حتى أتون النار كان في صقّهم، فإنهم لم يحققوا ما أرادوا. أمّا الذين خرجوا منتصرين، فكانوا ثلاثة فتية عُزِّلَ، عبيدًا، غرباء، لا يملكون جاهًا ولا سلطانًا. وهل يوجد عددٌ أقل من ثلاثة في مواجهة جيش لا يُحصى؟ ومع ذلك، فقد انتصر هؤلاء المقيدون، لأنهم احتقروا الموت، إذ كانت أنظارهم متجهة إلى المسيح الآتي، الذي من أجله استهانوا بكل تهديد، وآثروا الأمانة لله على الحياة نفسها. وكما أنَّ الشمس، عندما تُشرق وتبسط أشعتها في الأفق، يسطع نور النهار في كل مكان، هكذا أيضًا، عندما أشرق شمس البرّ، أخذ الموت يتراجع ويندحر. فهل هناك مشهدٌ أبهى من هذا المشهد السماوي؟ وهل يوجد انتصارٌ أجد وأعظم من هذا الانتصار؟ وهل عرف العالم احتفالًا أقدس

٥) ولا حظ غياب الزهو والغرور لدى الفتية الثلاثة، فهم لم يندفعوا إلى داخل الأتون، بل إن طلبهم لمعونة المسيح هو الذي حفظهم، وهو الذي أوصى قائلاً: «اسْهَرُوا وَصَلُّوا لئَلَّا تَدْخُلُوا فِي تَجَرِبَةٍ» (متى ٢٦: ٤١). ولم يهرب الفتية الثلاثة، لأنهم شعروا بالضيق، بل وقفوا بثبات وشجاعة وسط الأتون، وهكذا لم يجاهدوا دون أن يكونوا مدعوين، ولا عندما دُعوا، تحيروا وترددوا، بل كانوا مُستعدين لكل شيء، شجعاناً ومملوئين بأساً. ولنسمع ماذا قالوا، لكي نعرف من أين أتت محبة الله ورعايته لهم: «هُوَذَا يُوجَدُ إِلَهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّينَا مِنْ أَتُونِ النَّارِ الْمُتَقَدَّةِ» (دا ١٧: ٣). لم يهتموا بأنفسهم، بل بينما هم مُعدين لأن يُحرقوا، حرصوا فقط بأن يعطوا المجد لله. وكأن لسان حالهم يخاطب الملك قائلاً: حتى لا تتهم الله أبداً بالضعف، إن احترقنا نحن، لأننا نعلن لك إيماننا الكامل بكل دقة، «يوجد إلهنا»، وهو ليس مثل أولئك الآلهة الأرضيين الذين لا روح لهم ولا صوت لهم، بل هو إله قادر أن ينسقط داخل الأتون. هو قوى وقادر للغاية حتى أنه بعدما ينسقط داخل الأتون، يستطيع أن يختطفنا مرة أخرى من اللهب.

«وَالْإِلَهِ فَيَكُنْ مَعْلُومًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّنَا لَا نَعْبُدُ إِلَهَتَكَ وَلَا نَسْجُدُ لِمِثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتَهُ» (دا ١٨: ٣). لاحظ أنهم كانوا يجهلون المستقبل، وهذا يدخل ضمن خطة التدبير الإلهي. لأنه إذا كانوا يعرفون من ذي قبل، ما كان عملهم هذا يستحق كل هذا الإعجاب. وهل هناك ما يستحق الإعجاب، لو أنهم إزدروا بالمصائب والكوارث الحالة بهم، إذا كانوا يعلمون أن لهم ضمان يؤكد خلاصهم؟ لكن الله قد تجدد، لأنه قادر أن يخرجهم من الأتون، أما الفتية فما كان لهم أن يستحقوا كل هذا الإعجاب، إذ هم لم يلقوا بأنفسهم في المخاطر، لذلك تركهم أن يجهلوا المستقبل، لكي يكرمهم أكثر. وكما أن أولئك الفتية قد جعلوا الملك لا يتهم الله بالضعف، إن هم احترقوا، هكذا فإن الله قد حقق الأمرين، أظهر قوته، وجعل إرادة الفتية تظهر ببهاء.

إذاً هل كان هناك ما يدفعهم للتشكك. وعدم التأكد، من أنهم سيخلصوا ويُقَدَّسوا على كل حال؟ فقد سلّموا كل أمورهم لله، بسبب

إحساسهم بأنهم الأكثر زهداً، وأنهم غير مُستحقين لمثل هذا الإحسان. والدليل على أنني لا أقول هذا من وحي خيالي، هو أنه عندما سقطوا في الأتون، صرخوا قائلين: «قَدْ خَطَبْنَا وَأَتَمْنَا مُرْتَدِّينَ عَنْكَ، وَأَجْرَمْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ». (تتمة دانيال ٣: ٢٩، ٤٣). ولذلك قالوا: «وَالْإِلَهِ لَمْ يُنْقِذْنَا!». لا تتشكك لأنهم لم يقولوا بوضوح، إن الله قادر أن يُنْقِذَنَا، ولكن إن لم يُنْقِذْنَا فذلك راجع إلى خطايانا. لأنهم سيبدون أمام البربر، أنهم بحجة خطاياهم، يحاولون أن يُعْطُوا على ضعف الله. ولذلك بعدما تحدثوا عن قدرة الله فقط، لم يُشيروا إلى السبب، ومن ناحية أخرى كان أمراً جيداً أن لا ينشغلوا كثيراً بدينونة الله. وبعدها قالوا هذا الكلام، دخلوا إلى النار ولم يتصرفوا بإزدراء تجاه الملك، ولا حطموا التمثال. لأن الشجاع ينبغي أن يكون عاقلاً وحكيماً وهادئاً، خاصة في وقت المخاطر حتى لا يبدو أنه ذاهب إلى هذا الصراع بغضب وغرور، بل بشهامة وتعقل. لأن كل من يسلك بإزدراء تجاه الآخرين، يُصبح مشتبهاً فيه ويُدان ويحرق عن كل ما يُنسب إليه من إتهامات، أمّا الذي يصبر ويحتمل، حتى وإن جُرَّ بخشونة وقسوة، والذي يُجاهد برفق، لا يستحق الإعجاب فقط لأجل شجاعته، بل أيضاً ينال الهتاف والتهليل لأجل حكمته وتعقله، ولأجل وداعته ولطفه. الأمر الذي صنعه أولئك الفتية، مُظهرين كل الشجاعة وكل الوداعة، وأنهم أقدموا على كل ما فعلوا، لا من أجل أجر ولا من أجل تعويض ولا من أجل مجازاة. هكذا قالوا: «وَالْإِلَهِ فَيَكُنْ مَعْلُومًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّنَا لَا نَعْبُدُ إِلَهَتَكَ»، فحسبنا أننا تحررنا من الطغيان والكفر، وحتى إن أُحرقت أجسادنا، فإننا نقبل ذلك بفرح، لكي لا نسقط في الكفر ونفقد أمانتنا لله. ونحن أيضاً طالما أننا نلنا هذا التعويض، وقد نلناه بالفعل، لأننا استحققنا أن نعرف الله، لأننا صرنا أعضاء المسيح، إذاً ينبغي ألا نجعلها أعضاء زنى. بهذه الصورة المرعبة، يجب أن ننهي حديثنا، لكي يبقى الخوف من التهديد بالجحيم حياً، وهكذا نبقي أكثر نقاءً من الذهب، حين تكون هذه الرهبة داخلنا. لأنه هكذا بعدما نتخلص من الزنا، سُبِمَكُنَا أن نرى المسيح، والذي ليتنا جميعاً أن نراه بالدالة التي لنا في ذلك اليوم المخوف، بالنعمة والرفات ومحبة البشر اللواتي لربنا يسوع المسيح الذي يليق به مع الآب والروح القدس القوة، والمجد، والكرامة إلى الأبد آمين.

يتبع في العدد القادم

العمر. لأنه يقول: «لِيُعْطِكَ الرَّبُّ حَسَبَ قَلْبِكَ، وَيَتِمَّ كُلُّ مَشُورَتِكَ» (مز ٢٠: ٤). فالحق أن مشيئة الله هي خلاص البشر، وقد أعلن ذلك بنفسه قائلاً: «أَفَلَعَلِّي أَسْرُّ بِمَوْتِ الشَّرِيرِ؟ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. أَلَيْسَ بِرُجُوعِهِ عَنْ طَرَفِهِ فَيَحْيَا؟» (حزقيال ١٨: ٢٣). فلنوجه قلوبنا إذاً إلى الرَّبِّ، ولنلق عليه كل همومنا، وهو يمنح مساعينا كلها في هذه الحياة الأرضية نهايةً صالحة، ما دامت تهدف إلى خلاص نفوسنا وتثمر خلاصاً أبدياً. الأب يوحنا (بروفيتيس) تلميذ القديس برسانوفوس

توزع هذه المجلة مجاناً

لدعم نشاطات الجمعية تقبل التبرعات مشكورة
في بنك العمال فرع الناصرة، حساب رقم:

IBAN: IL48012726000000111122

كفر كنا - الشارع الرئيسي - ص. ب. ٦١٩

e-mail: light_christ@yahoo.com

http://lightchrist.org/bulletins.html

جمعية نور المسيح

المعزز المسؤول:

هشام خشيون - سكرتير جمعية نور المسيح